الأبعاد الاجتماعية في شعر محمد محسن مشاري

دكتور / خالد بن ربيع الشافعي
قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة جازان

مقدمة

هذا هو الميدان الذي يعالج فيه الشاعر قضايا مجتمعه معالجة يقصد فيها إلى تلمس الأدواء ومداواتها وتحسس منابع الخير والصلاح وتنمْيتها والدعوة إليها، فالشعراء مصابيح أممهم، قناديل تضيء المجاهل والدروب للأمم المتخبطة في دياجير الجهل والفقر والضياع.

الشعر الاجتماعي: هو الذي يتناول قضايا المجتمع بشيء من التفصيل فيبرز الداء ويصف الدواء، يضخم الداء حتى تحس به الأمة فتستأصله من جسدها، كما يستأصل المرض الخبيث من الجسم العليل.

فكلما تعقدت معيشة الناس، وعاشوا الحياة المنظمة المتحضرة، تفشت بينهم الأدواء والأمراض الاجتماعية، ولكنها على تتابع الحقب في التاريخ الإنساني لم تبلغ مبلغها في العصر الحديث؛ فقد أصبح نظم الشعر في القضايا الاجتماعية أمرا اعتياديا، بل لقد اشتهر في هذا المضمار مجموعة من الشعراء المبرزين فيه.

وقد توجه هؤلاء الشعراء إلى تناول القضايا الاجتماعية بدافع إصلاحي تربوي؛ فأخذ الشعر الاجتماعي في تناول حياة الناس العادية اليومية، ونادى بالعدالة الاجتماعية، ومحاربة الفقر، والعمل، ومعالجة الأمراض الاجتماعية، والآفات الخلقية، ومشاكل المرأة، والعمال، والتعليم، والغلو في الدين، والانحراف الخلقي بجميع أشكاله. ومثل ذلك مما كان سببا في تأخر المجتمعات العربية، ومن الشعراء من لجأ إلى الرمز، لنقد الناس في مواقفهم، وتصرفاتهم على شكل قصص على ألسنة الحيوان، أو بالاعتماد على الأسلوب غير المباشر.

إذن الشعر الاجتماعي شعر هادف، يرمي إلى إصلاح الأوضاع الاجتماعية السيئة عن طريق تشخيص سببه وتحديده ووصف دوائه، وذلك باستعمال أساليب الإقناع، كإجراء موازنة بين التمادي في الغي والانصراف عنه، وتعريف الناس بحقوقهم، والتنبيه إلى ما أحرزته الشعوب المتقدمة في المجال الاجتماعي .

كان للشعر الاجتماعي انعكاسات مهمة على المجتمعات العربية حيث أسهم في توضيح الحقائق وتنوير الدروب وانتشال العرب من بحر الضياع وأوحال المدنية الغربية، فأصبح مجتمعاً واعياً مدركاً لما يحيط به من مؤامرات ودسائس؛ تستهدف قيمه ومثله ولغته ودينه وشخصيته.

لولا الشعراء لغدا مجتمعنا كحديقة تسلطت عليها الحشرات فأودت بجمالها وعطرها. لكن هذا المجتمع انتعش وازدهر بفضل شعراء الإصلاح والتنوير الذين يعرفون أن الساكت عن الحق شيطان أخرس، فحولوا شعرهم لخدمة أمتهم وأوطانهم.

إن الصلة بين الشعر والمجتمع صلة وثيقة، لا تنفصم عراها، فالشاعر خاصة والأديب عموما " يتأثر بالحياة الخارجية السائدة في بيئته، والقائمة في مجتمعه، وهو يستمد أدبه من حياة هذا المجتمع "[1]

إن الأدب ــ والشعر من أبرز فنونه ــ تصوير لموقف الأديب من مجتمعه وفهمه له ،" أما أن ينقل الأديب حياة المجتمع، أو أن يكون المرآة التي تعكس حياة هذا المجتمع، ليتلقاها، أو يراها المجتمع ذاته، فعبث ليس من الأدب في شيء " [2]

بات الشعر الاجتماعي في السعودية يعني " ذلك اللون الشعري الذي حمل شداته على عاتقهم مهمة الإصلاح الاجتماعي على أسس ودعائم تستمد مرجعيتها من الرسالة الإسلامية وقيمها ومثلها فدعوا إلى محاربة الجهل والمرض والعلل والمفاسد الاجتماعية ، وإفساح المجال لأنوار العلم والحضارة الجديدة لتشرق وتسطع في سماء المجتمع وسائر أرجائه " [3]

([1]) د.عز الدين إسماعيل /الأدب وفنونه / دار الفكر العربي/ ط ٧ / ١٩٨٧م/ ص : ٤٣.

([2]) المصدر السابق/ ص: ٤٤.

([3]) د. مفرح إدريس سيد / الشعر الاجتماعي في المملكة العربية السعودية منذ نشأتها حتى ١٣٩٥ هـ / ط ١/ ٢٠٠٢م/من مطبوعات نادي المدينة المنورة الأدبي.

وتُعد الأسباب التي جعلت الشعراء السعوديين في العصر الحديث يهتمون بالشعر الاجتماعي كثيرة فكثرة المشاكل وتنوعها وكذلك انتشار الوعي والروح الوطنية و تفاعل الشعراء مع محيطهم وإحساسهم بمشاكل المجتمع وإدراكهم لدورهم الفعال في تحذير المجتمع من مغبة التردي والانحطاط ودفعه نحو السمو.

إن الكتابة عن أي إنسان، مهما علا قدره، ونبه شأنه في الناس، أو كان بسيطاً سهلاً، لا أثر فاعل ومؤثر له في الذهن الجمعي، مهمة محفوفة بالمخاطر، فأنت إن لم تعط من تكتب عنه حقه من البحث والاستقصاء، وجمع التفصيلات الصغيرة، وعرضها بحيادية تامة، تماما كما حصلت، ستكون كمن أخل بالأمانة، وترك مجالا للطرح غير السوي، المدفوع بجموح العاطفة، وعجلة الإنجاز في تساؤلات المتلقين الأولية.

فكيف يكون الحال في عرض تجربة شاعر، باصطفائها من نتاجه الإبداعي الذي أوهنه، حين بثه، وأتعبه حين وعاه مجايلوه وخلطاؤه؟! ولم يكن ثمة لقاء استجوابي يبقي على واقعية مرصودة، في الذاكرة ويثبت خيالات تريد أن ترتقي علوا قليلا، وليس ثمة معاون يقص سيرة رجل، قدم نفسه في أشعاره، فذاب أسى في اقتراف الشعر، وسالت ألامه فيه حين فاض بالصدق، ولأن شعره، يقول عنه ما لم يقله خاصته وأهله؛ رأيت أن أكتب عن الاتجاه الاجتماعي لدى شاعر من أبناء مدينة (صبيا)، وهي مدينة غنية بأحداثها ورجالاتها، ممن طوت عجلة الزمان صفحاتها، وهي بحاجة إلى من ينقب عنها، ويجلوها قبل أن تعصف بها يد النسيان.

إن حضور تجارب الرواد ينبينا، عن مسار تطور فكر ، وتبلور معرفة حديثة ، وتشكيل ذائقة أدبية، وموقف أخلاقي وجمالي ووجداني ، داخل تيارات الأمة الحية، لتبرز بوصفها نقاط ارتكاز في البناء السحري، الذي يربط المحطات بسياقاتها ، لتعزز قضية المعرفة، والمنهج ، ما يسمح بالتواصل بين أطرافها، وبما يحمي ذواتنا، من الوقوع في فخ الدوجماتية، والتبسيط، إذ تفتت كل أوهام التطابق، وصلابات اليقين، ومطلقيات الثبات .

ولعل من أهم الأسباب التي جعلتني اختار الجانب الاجتماعي في شعر محمد محسن مشاري لأخصه بهذه الدراسة دون سواه بالرغم من حضور جوانب أخرى مضيئة في شعر المشاري ترجع إلى غزارة شعره في هذا الجانب، وجودة معظمه من الناحية الفنية، ولكون المجتمع الذي كان ميدانا لهذا الشعر مجتمعا محافظا، فكان لهذا

اللون من الشعر إسهامه القوي والفاعل في توجيه المجتمع؛ فاحتاج مني هذا اللون في شعر المشاري إلى إبرازه، ومن ثم الوقوف على سماته التعبيرية والفنية .

ونجاح الشاعر في هذا الميدان متأت من قدرته على اختيار السياق الخاص المتميز ، ليوحي عن طريقه بحالته الشعورية ، وتفرده الفني " فقيمة اللفظ نابعة من سياقه وبغيره يفقد طاقاته الخلاقة في الصورة الشعرية ويتراجع إلى دلالته الحرفية " [١]

وأن ذلك ليشير بوضوح إلى محاولة التوفيق بين الروح والمادة ، تلك الروح التي تسعى دائما إلي البحث عن المؤانسة والمحبة ، بما يجافي اللوعة وفراق المحبوبة ، كما يشير ذلك إلي شعور الذات بالحرمان الروحي والعاطفي ، فالشاعر معطل عن الشدو طالما أنه يتلظى بنيران الجفاء ، وتتحول الأشياء إلي كابوس ثقيل يحد من حرية الشاعر ووجوده . ولكن علي الرغم من كابوسية الأشياء أحياناً فإنها تظل أداة الشاعر للوصول إلي ما هو مرئي وغير مرئي داخل نسيج الخطاب الشعري ، بما يفجر التجربة الشعرية ذاتها ، وبما يشد نسق الدوال داخل الخطاب الشعري بجذوره المرجعية الصريحة والمضمرة" [٢]

---

(١) د. أسماء أبو بكر/ سيميائية النص الشعري / دار الأمانة للنشر والتوزيع / ٢٠٠٣ م / ص٦

(٢) فاضل ثامر / اللغة الثانية / المركز الثقافي العربي في بيروت / ط ١ / ١٩٩٤ م / ص٣٨

مدخل

حياة المشاري سفر حافل بالعطاء، زاخر بالأحداث، آلامها أكثر من أفراحها، وقد أشار إلى آلمه حين بلغ مرحلة الشيخوخة في عدد من قصائده .

كان طيب المعشر، دمث الخلق، جمعت فيه صفات الأبوة، والأخوة، والصداقة، لكل من يقترب منه، فكان معلماً ومرشداً ورفيقاً، يفيض محبة وشفقة على كل من ارتبط به، عرف عنه الجد في عمله، وصحة العزم على اكتساب المعرفة، حتى لو بذل في سبيلها، الجهد، والمال؛ فأنتج لنا إلى شعره، كتابا مهما أثرى المكتبة السعودية، وهو كتابه (صبيا).

كون في داره في صبيا، ما يمكن أن يسمى صالوناً أدبياً ؛ يجتمع فيه مجموعة من أقرانه ومريديه، يتجاذبون الحديث في شؤون الثقافة والسياسة والاجتماع، وكان رأيه محل اهتمام ، وتقدير، ولذا كثر مستنصحوه، وطالبو رأيه ومشورته.

كان بحراً فياضاً، وجوداً معطاءً، ما يملكه، ليس له عاش لغيره، ونسي نفسه، وهذا ما جعله يعيش في شظف من العيش، لم يمتلك من حطام الدنيا، إلا ما يقيم أوده، ويستر عياله.

ولذا عندما تقاعد، وهاجمته الأمراض، تنكر له من عاش في كنفه، ونهل من معينه، مما أصاب الشاعر بصدمة نفسية، ألجأته إلى التقوقع، والانطواء؛ فهاجم بشعره تلك الموبقات، التي رآها ماثلة أمامه، رأي العين، واكتوى بنارها، في أكثر من مناسبة.

كان المشاري حريصا على تنشئة أولاده، على المثل العالية السامية، وكان ينفق من وقته وجهده، في سبيل ذلك الكثير، وحين كبروا، صار لا يتدخل في شؤونهم الخاصة، إلا بالرأي والنصيحة.

محمد محسن مشاري، ابن صبيا،ابن بيئته، التي نشأ، وشب بين ظهرانيها؛ فصنعت عبر مسرحها أشعاره، وكانت ملتقى أخيلته، ومناط آماله، تشكلت ثقافته، من بيئتها الخاصة، ثم عبر الدراسة في الكتاب، فالتعليم النظامي، ثم الوظيفة، وعبر وعيه بحقيقة المكان، وتحولاته ، ومتغيراته، صبغت الشاعر بصبغتها، فهو شاعر يرى صبيا بحركة أهليها يوميا، ونظامهم الحيوي المتدفق ، فشعره، تفوح منه أشذاء صبيا، بصورة ملفتة، وتلك ميزة، تدل على صدق فني، ظاهر، لذا نلحظ عناية الشاعر بتنصيص أسماء الأمكنة في عدد من نصوصه، مما يؤكد الغاية القيمية، التي تشغله في

توثيق دواله (الشعرية / المكانية)، وتقريب دلالاتها الثقافية لذائقة المتلقي؛ بحيث يتكامل المتن الشعري، بالهامش التفسيري، الذي يقدم تعريفا بتلك الأمكنة.

هو شاعر يبحث عن المثالية المنطلقة، من الدين الإسلامي، الملتزمة بخدمة وطنه وأمته ، وإنسان بلده، وإنسان أمته، ولذا نلحظ الحس الإنساني السوي يتماهى مع الشعرية بحيث ينتجان، ذلك النموذج الجمالي.

إن جل أشعاره، لا تخرج عن هذين البعدين : الأرض وساكنيها . وعن هذين البعدين ، تتفرع موضوعات أخرى، تلامس أبعادا ذاتية، في الشاعر المراقب لأحداث الزمان، من حوله مراقبة القارئ الماهر، والراصد للمتغيرات، بمرصاد الخبير؛ فتبدو لأول وهلة أشعاره، مكرورة أو تعالج الهموم ذاتها، لكن الذي يرجع النظر فيها بإمعان، يجد حكمة تآزر أخرى، وخبرات تتراكم، ورؤى متجددة تشاد في قصيدته الرائعة عن محبوبته صبيا، وهي قصيدة تمتاز، عن كل قصائد الشاعر، بما فيها من حرارة، تبدأ من أول بيت إلى آخر بيت، فيها تتحقق الإشارات؛ فرأينا منها فيه شاعرا يملك ناصية البيان، ويصور بالشعر قصة محلية الانطلاقة، إنسانية المرمى فيها تماسك، ووحدة وقوة.

ومن هنا كانت صفة الوضوح، والصدق، من أهم ما يتميز به المشاري، فهو شاعر مطبوع، ولد بنفس شاعرة، وإحساس حاد بالجمال، عاش مراقبا ذاته، ومحيطه، فكان شعره، مرآة صادقة لنفسه، ولحياته، وأحاسيسه، وتجاربه، وهو صورة صادقة لمجتمعه وأمته.

فقارئه ليس في حاجة إلى بذل أي جهد، في استكناه أبعاد شخصيته الحيوية الإنسانية، أو الأدبية الشاعرة، واكتشافها، يشعر من يقرؤه أن الشاعر نفسه واقف أمامه، يقدم له فكره في مفردات تسبق إلى الذهن، وتثب إلى القلب مرة واحدة.

يشعر من يقرأ شعر المشاري، أنه أمام حكيم تدثر برود الحكمة ، وأنه أمام صعلوك من صعاليك العرب، نازق فارق جماعته ، وأنه أمام باحث عن الحقيقة. ثمة ما يبدو أنه تناقضات، وثمة ما يبدو أنه تآلفات.

ولكن المؤكد، أننا إزاء شاعر، لم يبلغ في التعليم عتياً، ولم يرتق فيه مراتب عالية، كما أن بيئته ليست ذات متغيرات كبيرة، على الصعيد العالمي.

ولكنه رغم بساطة كل شيء أمامه، ومن حوله وبساطته، هو كان يشعر بكل ما هو قار ثابت، وبكل ما هو متحول متغير، وكأنه ينظر من طرف خفي، إلى ما تنتهي إليه الأشياء ، وما ينتهي إليه هو كشيء ثابت قار، ومتحول متغير في آن.

ومن هنا، نشأ صراعه مع ما حوله، ومن حوله، ومع ذاته الطامحة، فعاش في صراع صعب، بان أثره على جسده الغض ، وكأنه يقي نفس الشاعر، من التغير، والارتماء في أحضان المتغيرات، فكان أن نهشته، وحاقت به من كل مكان، فأمضه المرض، وأعياه الفكر، وأرقه، ذوى جسده، ونجت روحه الطاهرة من التلوث. فالشعر الصادق هو الذي يحمل نبضاً من حياة الشاعر " لا شيء يستقل بنفسه ، الكلمة لا تستقل عن الكلمات ، والعمل لا يستقل تماماً عن كاتبه ، ولا يستقل عن سائر الأعمال ، وحياة الكاتب من خلال عمله لا تتضح بمعزل عن حوار أوسع " [1]

النهوض بالمجتمع ، ويشمل :

المتأمل في أشعار المشاري يقف على سعة إدراكه لأهمية العلم، وأنه معين على التقدم والرقي للمجتمعات؛ فوجدنا دعوة إلى نشر العلم، والترغيب فيه، وحث أبناء المجتمع على الالتحاق بركبه، والتزود منه. وفي المقابل وجدنا الدعوة تأخذ شكلا أشد إلحاحا إلى محاربة الجهل، وتحفيز الدولة على نشر العلم، وتيسير سبله لقاصديه، فهم الغد الواعد حاملو لواء التغيير.

يَا إِخْوَتِي وأَسَاسُ ثَرْوَةِ مَوْطِنِي لَنْ تُؤْخَذُ الدُّنْيَا بغَيْرِ غِلابِ

إنَّ السَّفِينَةَ في غَدٍ سَيَقُودُها جِيلُ المَعَارِفِ فَوقَ كُلِّ عُبَابِ

وَبِغَيْرِ كَسْبِ العِلمِ لَنْ تَرْسُو عَلَى شَطِّ الأمَانِ فَشَمِّرُوا أَحْبَابي

لِيَكُونَ كَسْبُ العِلْمِ أَكْبَرَ هَمِّكُمْ سِيرُوا إِلَيْهِ بِهِمَّةِ الوَثَّابِ[2]

ويبين أثر العلم في محاربة الجهل، فالجهل شر بحت، ويعرض ما تسفر عنه من أدواء وعلل، ويبرز دور العلم الفاعل والمؤثر في تحقيق النهوض، والتقدم الذي تتطلع إليه

([1]) مصطفي ناصف / نظرية التأويل / النادي الثقافي الأدبي في جدة / ١٤٢٠ هـ / ص ٥٤

([2]) خالد ربيع الشافعي / شعر محمد محسن المشاري/ جمع وتحقيق / ط١/ ٢٠٠٩م/ نادي جازان الأدبي/ ص: ٤٠.

آمال الجميع، فالعلم نور يهدي طلابه إلى جلائل يجب عليهم السعي لتحصيلها ،على شرط أن يبقوا أوفياء لدينهم وأخلاقهم ... ويحشد لذلك الشواهد والبراهين التي تؤكد صدق دعواه، وصواب نظرته لحمل الشباب على تحصيله، وجني ثماره.

لا خَيْرَ في الجَهْلِ المُخِيفِ فَفَكِّرُوا بِعُقُولِ مِثْلِ الرَّاسِيَاتِ رِحَابِ

بِالعلمِ نَسْمُوا لِلْعُلا فِي عِزَّةٍ والجَهْلُ يُرْجِعُنَا علَى الأعْقَابِ

بِالالْتِزَامِ بِشِرْعَةٍ وَضَّاءَةٍ سَمْحَاءَ تَهْدِينَا لِكُلِّ صَوَابِ

بالنُّبْلِ بالأخْلاقِ بالشَّرَفِ الذي يُفْضِي إلى التَّقْدِيرِ والإعْجَابِ

بالعَزْمِ بالتَّصْمِيمِ فِي طَلَبِ العُلا بالأخْذِ بالمُجْدِي مِنَ الأجْنَابِ

إنْ كانَ لا تَأْبَى الشَّرِيعَةَ أَخْذَهُ لِيُشَادَ صَرْحُ الْعِلْمِ فَوْقَ تُرَابِي

أَجْدَادُنَا فَتَحُوا البِلادَ لأنَّهُم دَانُوا لِعِزَّةِ وَاحِدٍ وَهَّابِ

لَمْ يُشْرِكُوا باللهِ فِي سُلْطَانِه أبَدًا ومَا خُدِعُوا بِمَكْرِ ذِئَابِ

وَطِئُوا جِبَالَ الْبِرْنَسَاتِ بِخَيْلِهِم غَرْبًا وقَدْ وَصَلُوا إلَى الْبِنْجَابِ

شرْقًا فَشَادُوا فِي المَجَرَّةِ مَجْدَهُمْ وَالمَجْدُ لا يَأْتِي بِغَيْرِ طِلابِ

لَمْ يُثْنِهِمْ بُعدُ المَسِيرِ ولَمْ تَخَفْ بَأْسَ العَدوِ فَأَفْلَحُوا بِثَوَابِ

وَثِقُوا بِرَبِّهِمُ فَسَادُوا فِي الوَرَى عَدْلا وكَانُوا غُرَّةَ الأحْقَابِ

إِيْمَانُهُمْ كَانَ السِّلاحُ وزَادُهُم كَانَ التُّقَى والعَزْمُ خَيْرُ رِكَابِ

كَانُوا جُنُودَ اللهِ فِي طَاعَاتِهِ وكَذَا أَحِبُّ بِأنْ يَكُونَ شَبَابِي

مَنْ كَانَ هَدْيُ مُحَمَّدٍ نِبْرَاسُهُ لَمْ يَنْخَدِعْ يَوْمًا بِلَمْعِ سَرَابِ[1]

هي دعوة صادقة لشباب البلاد من طلاب العلم أيا كانت وجهتهم ومهما تنوعت علومهم ، فعليهم أن يبيموا وجوههم شطر ماضي الأمة التليد، منبهاً إلى أن المكانة

(1) المصدر السابق/ص: ٤٠-٤١.

العالية التي تبوأها أسلافهم لم يكن بالعلم فحسب بل بالإخلاص والعمل والثبات على الدين قدوتهم في ذلك نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم .

ويعود الشاعر ويحشد لهم عددا من ألوان الاختراعات والإنجازات التي توصل إليها الغرب بفضل العلم الحديث بفروعه ومعارفه المتنوعة، وهذا الحشد يحمل في ثناياه تحريضا للشباب على مجاراة الغرب في تقدمه ورقيه ودعوة إلى وأد الكسل ودفن الخمول والاستفادة من الغرب والأخذ عنهم ما لا يتعارض مع قيمهم ومبادئهم الإسلامية، بل يحثهم على التمسك بهدي الدين الإسلامي وشريعته السمحة الحنيفة وأخلاقه الفاضلة حتى يكون البناء الذي سيرسون دعائمه وينهضون به قويا متينا فثمة ضرورة ملحة تدل على تلازم الدين والأخلاق والعلم في بناء النهضة الصادقة التي تبني المجتمع روحا ومادة، يظهر ذلك من قوله :

إنَّ الـذينَ علَـى الْكَواكِـبِ أَنْزَلُـوا سُـفُنَ الْفَـضَاءِ وطَـارَ فَـوْقَ سَـحَاب

بالطَّـائِرَاتِ المُـثْقَلاتِ وأَرْسَـلُوا عَبْـرَ الفَـضَاءِ صَـوَارِخ الإِرْهَـابِ

وكَذَاكَ أَسْـلِحَةَ الـدَّمَارِ وَمَـا عَـسَى نَلْقَـاه مُنْهَـا غَيْـرَ كُـلِّ خَـرَابِ

وَالهَـاتِفُ الآلِـيُّ وَذَلِـكَ مُنْجَـز عِلْمِـي وَنُـورُ الْعِلْـمِ لَـيْسَ بِخَـابِ

بَـلْ ذَاكَ مُعْجِـزَةُ الْعُلُـومِ لأَنَّـهُ مِـنْ غَيْـرِ وَاسِـطَةٍ يَـرِدُّ جَـوَابِي

هَـلْ كَـانَ مَعْقُـوْلاً بِنِـصْفِ دَقِيقَـةٍ وَتَكُـونُ أَمْرِيكَـا بِـدَاخِلِ بَـابِي

بِـالرُّغْمِ مِـنْ بُعْـدِ المَـسَافَةِ بَيْنَنَـا لَـوْلا الْحَقِيقَـةُ مَزَّقَـتْ لِحجَـابِي

مَـا كُنْـتُ مُقْتَنِعًـا وَقُلْـتُ بِأَنَّـهُ خَبَـرٌ كَـذُوبٌ جَـاءَ مِـنْ كَـذَّاب

وَالْكُمْبِيُـوتَرَ وَالـتِّلِكْسَ أَكُـلُ ذَا بِالْجَهْـلِ شَـادُوهُ بِـلا أَلْقَـاب

مَـا ذَاكَ إلا العِلْـمُ قَـدْ فَـازُوا بِـهِ وغَـدَوْا يَدُوسُـوا* فَـوْقَ كُـلِّ صِـعَاب

لَمْ يَصْنَعِ الجُهَـلاءُ فِـي هَـذَا الْـوَرَى شَـيْئًا وعَاشُـوا تَحْـتَ كُـلِّ ضَـبَاب[1]

([1]) المصدر السابق/ص: ٤٠و٤١.

وهو ينعي على من يتهم أمة العرب والإسلام بالتخلف والسير خلف القافلة لتمسكهم بدينهم وحفاظهم على معتقداتهم مفندا أن التمسك بالدين ما كان عائقاً في سبيل التقدم والعلوم والأخذ بأسباب الحضارة فكلها تهم زائفة كذبتها الوقائع وأبطلتها الحقائق فمن قبل كان لأمة الإسلام قصب السبق في قيادة العالم بأسره نحو التحضر والتعلم والاكتشاف وفي العصر الحاضر ثمة نماذج وضاءة لمسلمين وعرب أسهموا في بلورة حضارة اليوم وصنعها فهاهو الأمير سلطان بن سلمان يركب الفضاء في مكوك الفضاء (ديسكفري) ، يقول :

فَـرَّقَ الـصِّدْقُ غِـشَاءَ الْكَـذِبِ وَمَحَـا النُّـورُ دَيَـاجِي الْغَيْهَـبِ
وَاسْـتَبَانَ الْحَـقُّ إِنَّـا أُمَّـةٌ نَنْـشُدُ الْمَجْـدَ بِـأَعْلَى الـشُّهُبِ
نَطْلُـبُ العِلْـمَ وأَسْـبَابَ العُـلا وَطِـلابَ العِلْـمِ أَقْـوَى سَـبَبِ
أَيْـنَ مَـنْ قَـالُوا بِأَنَّـا أُمَّـةٌ نَـسْكُنُ الـصَّحْرَاءَ تَحْـتَ الطُّنُـبِ
لا حَـضَارات وَلا عِلْـمَ لَنَـا قَـدْ عَجِزْنَـا عَـنْ لَحَـاقِ الْمَرْكَـبِ
كَـذَبُوا وَاللهِ إِنَّـا أُمَّـةً جَاءَهَـا مِـنْ رَبِّهَـا خَيْـرُ نَبِـي
فَأَخَـذْنَا عَنْـهُ دِينًـا قَيِّمًـا قَـدْ حَـوَى الْعِلْـمَ وَحُـسْنَ الأَدَبِ
عِلْـمَ دُنْيَانَـا وَأُخْرَانَـا مَعًـا وَنَـشَرْنَاهُ بِـأَرْضِ الأَجْنَبِـي
وَأَخَـذْنَا مِـنْ عُلُـومِ الْغَيْـرِ مَـا يَجْلِـبُ النَّفْـعَ لأَرْضِ الْعَـرَبِ
فَـازْدَهَى عَهْـدُ الْحَـضَارَاتِ بِهَـا شَمْـسُهَا مُـشْرِقَةٌ لَـمْ تَغْـرُبِ
مَـا عَـسَاهُمْ أَنْ يَقُولُـوا بَعْـدَمَا شَـاهَدُوا سُـلْطَانَ فَخْـرَ الْعَـرَبِ
يَرْكَـبُ الأَخْطَـارَ يَرْتَـادُ الْفَـضَا فِـي وُثُـوبِ اللَّيْـثِ لَمَّـا يَثِـبِ
إِنْ يَكُـنْ سُـلْطَانُ قَـدْ رَادَ الفَـضَا وَهُـوَ إِنْجَـازٌ عَظِـيمُ المَكْـسَبِ
لَـمْ يَكُـنْ سُـلْطَانُ إلا وَاحِـدًا مِـنْ شَـبَابٍ عَرَبِـيٍّ نُجُـبِ
كُلُّهُـمْ سُـلْطَانُ فِـي إِقْدَامِـه تَعْـشُقُ المَجْـدَ وَعَـالِي الْمَنْـصِبِ

لكنه يؤكد على دور الشباب وهو القوة الحقيقية وهو العدة للمستقبل القادم مهما قتمت أجواؤه وتلبدت بالغيوم فالشباب المتعلم المستمسك بدينه الغيور عليه والملتزم بخلقه والمنافح عنها وأن تمسكه بأهداب دينه واتباع سنة نبيه هو المكسب الحقيقي، بل هو أساس التمدن والتحضر هي حضارة الروح والبدن :

إنَّ الشَّبَابَ هُوَ الذَّخِيرةُ فِي غَدٍ ... لِلْمَجْدِ أَوْ خَوْفَ العَجَاجِ الْكَابِي

لِلْنَائِبَاتِ إِذَا النَّوَائِبُ أَطْبَقَتْ ... لِحِمَى الْحِمَى وَسَلامَةَ الأَحْسَابِ

مَا دَامَ مُلْتَزِمًا بِأَشْرَفِ مِلَّةٍ ... بِالدِّينِ يَتْلُو فِيهِ خَيْرَ كِتَابِ

لا يَبْتَغِي بَدَلًا بِهِ أو يَقْتَدِي ... بِالتُّرَهَاتِ لِحِفْنَةٍ أَذْنَابِ

فَالدِّينُ قُوَّتُنَا وَمَصْدَرُ خَيْرِنَا ... فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَيَومَ مَتَابِ

وَبِغَيْرِ دِينِ اللهِ نُصْبِحُ أُمَّةً ... شَتَى الْقُلُوبِ ضَعِيفَةُ الأعْتَابِ

فَهُوَ الْقَوِيُّ وَعَاشَ كُلَّ حَيَاتِهِ ... وَيَدَاهُ تُمْسِكُ أَمْتَنَ الأَسْبَابِ[1]

ويظل هاجس التعليم ونشر العلم هاجسه وشغله الشاغل ؛ لقد أدرك المشاري ما للعلم على الفرد والمجتمع من أثر تتعدد ملامحه وتتشكل أبعاده فترتقي بمن يحمله إلى مراقي عالية بل تتبدل حال الفرد والمجتمع المتعلم من السلب إلى الإيجاب فيحول عيش الفقر والذل والقهر بالعلم إلى عيش الغنى والعزة والسؤدد.

وقد شخص المشاري في قصيدة طويلة حال عموم البلاد قبل مجئ العهد السعودي الزاهر ففرق بين الحالين حال البداوة والجهل ، وحال العلم وإكرام أهله من العلماء والمتعلمين يتحدث عن الفرق بين ماضي قريب مظلم وحاضر زاه بهي مشرق حديث الخبير العارف المجرب فهو عاصر الفترتين فترة قبل توحيد البلاد على يد المؤسس الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل وفترة ما بعد توحيدها ودخولها في ركب الحضارة والتمدن وهو يورد في هذا النص المفارقات الرائعة بين الفترتين أو العهدين

يمضي الزمان وإنسان الجزيرة ملتصق بها ، يذوب فيها ، مهما ضاقت به السبل ، أو نأى عنه الرزق . يعيش شظف العيش ، قنوعا بما يأتيه ، مؤمنا بقضاء الله وقدره . مرت بإنسان الجزيرة العربية مراحل صعبة ، تعايش معها دون مواجهتها ،

([1]) المصدر السابق/ص:٤١.

من أجل حبه لأرضه ، موقنا بخصوصية الأرض التي خرج منها نور الرسالة إلى أرجاء المعمورة . مرَّ حين من الدهر أطبق الجهل على سكان الجزيرة ، وضرب الفقر بجرانه ، وساد القوم جهالهم ؛ فأحيوا العصبية بكل أنواعها . وفشت كل الأوبئة الحسية والمعنوية . وما أهل (المخلاف السليماني) عن إخوانهم في أرجاء الجزيرة الأخرى ببعيد .

و (صبيا) كبرى محافظات المخلاف السليماني (جازان حاليا) كبقية قراه ومدنه ؛ ظل أهلها يعشقون رحيل النهار المر ، المضني بعناء الجهد ، والعنت ، ينتظرون بشوق قدوم المساء ، ليزيل غبار يومهم ، ويبخر قطرات العرق الساخن المشعة على جباههم . إلى الصمت يفرون ؛ يسدلون الليل على مواجعهم ، فيبيتون ليلهم كالقبور ، ينامون على خرافات شقوتهم ، قدسوا تقاليد سنها مجتمعهم القبلي الجاهل . يمضي الزمان بهم ، ولاشيء يغير أفكارهم البالية ، تمزقهم النعرات ، وتطحنهم الجهالة .غاية مطمحهم أن يقتل بعضهم بعضا .شجاعتهم تكمن في تقليب بشاعتهم ، عن طريق إذكاء النعرات ، وكأنها رقصات شعبية ، ترتاح إليها رجفتهم الزائفة . يظنون أن اللهو ، وقتل الأخ ، وابن العم ، وغصب الجار ، وهتك العرض يسرع الخطى في تقدمهم . لا أخلاق تزجرهم ، ولا شرائع تردعهم ، يقتلهم تمردهم ، ويفنيهم تعصبهم . هكذا علمهم سادتهم ، وبلا إدراك أطاعوهم وأذعنوا إليهم ؛ فأضحى سفك الدم يأسرهم . وكل الحق ما قالته سادتهم . مسختهم الأمية العمياء ، وتملكتهم الأفكار الخرقاء ، كانوا كأشياء مبعثرة عن أي غاية سامية ، أو هدف نبيل . صدقوا بالأرواح ، وعبدوا الأولياء ، وتبركوا بالقبور وسادتهم الطواغيت ، زعموا لأنفسهم ، قوى خارقة . فرضوا المكوس ، ومن الفلاح الفقير أخذوا الخراج . جمعوا المال ، وخزنوا الغلات . سهل بلدتهم الممتد على الأفق ، قد تغنى عشبه في فلاحه الماهر الكادح ، الذي اقتاته الجهد ؛ فبات أسير الداء ، والعلات . لا حرف يُقرأ ، ولاشيء يُدرس . فكأن دهرهم رماهم بذل الجهالة ، وذل العناد .

كَذَلِكَ كَانَ الْفَرْقُ بَيْنَ الذِي مَضَى وَمَا نَحْنُ فِيهِ، وَالخَبِيرُ شَهِيدُهَا

لَقَدْ عَاشَ فِي أَرْضِ الْجَزِيرَةِ قَبْلَنَا قَبَائِلُ شَتَّى قَسَّمَتْهَا حُدُودُهَا

أَحَاطَتْ بِهِمْ أَقْسَى الظُّرُوفِ وَأَشْعَلَتْ بِهَا فِتَنٌ، وَالْجَهْلُ فِيهَا يَقُودُهَا

إِلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَالْجَهْلُ إِنْ طَغَى تَعَذَّرَ أَنْ يثنِي الْجَهُولَ رَشِيدُهَا
فَلا أَمْنَ يَهْدِي لِلنُّفُوسِ سَلامَهَا وَلا سُلْطَةً يَحْمِي الضَّعِيفَ عَمِيدُهَا
فَكَمْ أَزْهَقُوا الأَرْوَاحَ دُونَ مُبَرِرٍ سِوَى الْجَهْلِ أَعْمَاهَا ؛فَجَاشَتْ حُقُودُهَا
وَكَمْ نَهَبُوا ظُلْمًا فَقَامُوا بِغَارَةٍ عَلَى حَيٍّ إِخْوَانٍ يَغُطُّ رُقُودُهَا
بِنَوْمٍ عَمِيقٍ وَالظَّلامُ يَلُفُّهَا وَقَدْ رِيعَ نِسْوَانٌ؛ فَهَبَّ فُهُودُهَا
غِضَابًا لأَخْذِ الثَّأْرِ مِمَّنْ تَجَرَّؤوا على الحيِّ وَالأَحْقَادُ يُذْكَى وُقُودُهَا
وَلَمْ تُثْنِهِمْ تِلْكَ الْوَشَائِجُ وَالْتَقَتْ سِلاحَانِ لِلإِخْوَانِ يَفْرِي حَدِيدُهَا
لِيَقْتُلَكَ بِالأَخِ الأَبِيِّ أَخٌ لَهُ وَكَمْ فَاضَ بِالدَّمِ الزَّكِيِّ وَرِيدُهَا
كَذَا حَالُهُمْ كَانُوا بِغَيْرِ رَوِيَّةٍ يُغَارُ عَلَى قَوْمٍ وَيَأْتِي رُدُودُهَا
يَعِيشُونَ فِي جَهْلٍ وَخَوْفٍ وَفُرْقَةٍ وَفَقْرٍ تُعَانِيهِ فَزَادَ نُكُودُهَا
فَكَمْ مَاتَ مِنْ جُوعٍ شُيُوخٌ وَصِبْيَةٌ وَمَاتَ بِحُضْنِ الأُمِّ جُوعًا وَحِيدُهَا
وَكَمْ صَارَعَ الْمَرْضَى السُّقَامَ وَمَا لَهَا سِوَى الْكَيِّ أَوْ فَصْدُ الْعُرُوقِ يُفِيدُهَا
إِذَا الْجُوعُ وَالدَّاءُ الْعُضَالِ تَجَمَّعَا فَإِنَّ مَصِيرَ الْمُبْتَلِينَ لُحُودُهَا[1]

فمن الله عليهم بمن وحد الشمل وأبدلهم بحال غير الحال التي كانوا عليها تسامعوا بملاحم تروى لذاك البطل (عبد العزيز)فتحركت في قلوبهم إرادة الحياة ؛ فرنوا إلى القادم الجديد . فقد طال بهم الأجل ، وها قد جاءهم الأمل . أرادوا شيئا من كرامتهم ، يرد إليهم . فكم لعنة للتاريخ قرضتهم ، وبقايا الآثام التي اقترفوها ، لا يدرون متى نهايتها .

أتاهم الأمل المنشود ؛ فأخرجهم إلى الفضاء الرحب الوسيع ، وأفرج عن آمالهم البكر . لقد أسعدهم مجيء الحب ؛فخفقت له قلوبهم ، وانتعشت كبسمة طفلة نشوى ؛ فرغبوا المجد ، يحدوهم بناء الغد ؛ فهدوا حصون الجهل وارتحلت عزائمهم إلى صفاء النفس . طووا الآلام والأضغان ، وتناسوا صراعات الماضي ، ولبوا نداء التوحيد

(1) المصدر السابق/ص:٦٢و٦٣.

والوحدة . فغير الحب لن يدنوا ، وفي غير العز لن يفنوا ، فأقبلوا على الحياة ، فكان العهد عهد الخير ، عهد اليمن والبركات . أحبوا ككل أبناء الوطن دولتهم ؛ فغدت إشراقة حية ، وكخلق جديد ، بعثوا من رمال التيه مآثرهم ، وجسدوا إنسانيتهم في عشق (السعودية) ومع إخوتهم أقاموا نهضة مثلى ، إلى العلياء قادتهم ، بوحي من عقيدتهم الصافية .

هاهم اليوم يواصلون المسير ، شيبا ، وشبابا ، رجالا ، ونساء ، وأطفالا ، إلى أعمالهم يغدون . كل ميسر لما خلق له ، تلفهم عناية الرحمن ، ونعمه تترى عليهم ، يمضون كل صباح بادئين حياتهم ، ليوم طري ، يعج ألفة ، وفرحا ، وأصوات صبية صغار ، تملأ الكون مرحا.

توحد الشعب ، في وطنه ، وقادته ، وامتزجوا ؛ حتى غدوا قصتحم به ، كالنخل سامقا ، وعاليا لا ينحني . وطننا من لنا سواه ، ومن له غيرنا . سنبقى له أوفياء ، وسنظل نبحث عن شموسه ، كل يوم في الصحاري ، والأودية ، وفوق السفوح ... ونرسم وجهه ، على كل قمة عالية ، وتحت كل شجرة خضراء ، سنكتب أشعارنا معا ، تحت السماء ، تحت النجوم ، في كل ليلة .

سنة تنقضي ، وأخرى تهل . فلنحتفِ بأناشيدنا ، في المواسم الحافلة ، ولنحفظ ملامح وطننا الوضئ فهاهي كل طيور الدوح ، الرائعة في شغاف قلوبنا ، تخفق ، ترسل نفحات:

وَفِي عَهْدِنَا الزَّاهِي نَعِيشُ بِنِعْمَةٍ ... بِهَا تُضْرَبُ الأَمْثَالُ قَلَّ وُجُودُهَا

رَخَاءٌ وَأَمْنٌ وَارِفَ الظِّلِ قَدْ غَدَا ... بِهَا الشَّعْبُ فِي نُعْمَى تَوَالَتْ سُعُودُهَا

يَنَامُ قَرِيرَ الْعَيْنِ مِلءَ جُفُونِهِ ... وَيَصْحُو، وَمِلءَ النَّفْسِ أَمْنًا* يَزِيدُهَا

ثَبَاتًا إِذَا مَا الْغَيْرُ أَضْحَى مُحَرَّمًا ... عَلَيْهِ لَذِيذُ النَّوْمِ، وَهُو فقيدها

أَلَمْ تَسْمَعُوا عَمَّا يُعَانِيهِ غَيْرُنَا ... مِنَ الْجُوعِ وَالْفَوْضَى، وَعَمَّا يَسُودُهَا

مِنْ الْقَتْلِ وَالتَّدمِيرِ فِي غَيْرِ رَحْمَةٍ ... فَلَمْ يَنْجُ مِنْهَا شَيْخُهَا وَوَلِيدُهَا

وَلَكِنَّ هَذَا الشَّعْبَ يَنْعُمُ رَافِلاً ... بِأَثْوَابِ نُعْمَى ضَافِيَاتٍ بُرُودُهَا

بِفَضْلٍ مِنَ الرَّحْمَنِ جَلَّ جَلالُهُ ... فَإِنَّ لَهُ النُّعْمَى وَمِنْهُ مَزِيدُهَا

عَلَيْـــهِ اتكَـــالِي ثُـــمْ جُهْـــدُ مُؤَسِّـــسٍ لِـــدَوْلَتِنَا الْغَـــرَاءِ عَـــالٍ مَـــشِيدُهَا
إِمَـــامِ الْهُـــدَى عَبْـــدِ الْعَزِيـــزِ فَإِنَّـــهُ مَلِيـــكٌ إِذَا عُـــدَّ الْمُلُـــوكُ فَرِيـــدُهَا
أَقَـــامَ كِيَـــانَ الـــشَّعْبِ وَحَّـــدَ صَـــفَّهُ وَكَـــانَ بِفَوْضَـــى كَبَّلَتْـــهُ قُيُودُهَـــا
أَشَـــادَ لَنَـــا مَجْـــدًا وَأَسَّـــسَ دَوْلَـــةً عَلَـــى أُسُـــسٍ مَـــا لانَ يَوْمًـــا شَـــدِيدُهَا
عَلَى الْعَدْلِ وَالإِنْصَافِ لا ظُلْمَ أَوْ هَـوىً عَلَـى شِـرْعَةٍ غَـرَّا أُقِيمَـتْ حُـدُودُهَا
عَلَى الْحَقِّ وَالْعُـضْبُ الْجِـرَازُ أَعَـدَّهُ* لأَعْنَـاقِ أَرْبَـابِ الْفَـسَادِ يَبِيـدُهَا
فَـسَادَ بِأَرْجَـاءِ الْجَزِيـرَةِ أَمْنُهـا وَمَـاتَ بِغَـيْظٍ مِـنْ هَنَاهَـا حَـسُودُهَا
وَفِي ظَـلِّ هَـذَا الأَمْـنِ ثُـمَّ الْتِزَامِنَـا بِمِلَّتِنَـا الـسَّمْحَاءِ تَهْفُـو بُنُودُهَـا
أُشِـيدَ لَنَـا صَـرْحُ الحَـضَارَةِ عَالِيًـا حَـضَارَةِ إِسْـلامٍ وَذَاكَ عَمُودُهَـا[1]

إنها أحلام الطفولة البريئة التي يبصرها الشاعر في جيل الأبناء والأحفاد تتحقق اليوم وكأنها تحققت في أيام طفولته " فالعودة إلى الطفولة إنما هي رمز للتحرر من كل منطق ونظام ، المبدأ الذي تقوم عليه هذه العودة ليس التماس العلاقة اللازمة بين الفن والطفولة والتي لا مفر منها لكل إنسان صادق، بقدر ما هو هروب وانسحاب إلى المنطقة التي تنأى فيها النفس عن أي مؤثر " [2]

وهو إحساس يسيطر على الذات ويلح عليها للخروج فيبدو في صورة متكررة تنبعث من اللاشعور .

هو يحلم ومن حقه ذلك أن يرى في مدينته الوادعة الجميلة وقد تهيأت لها كل المقومات لتكون نموذجا لمدينة متحضرة راقية، ولا ريب أن مثل هذه الأحلام تحققها تطلعات فيمن بيده إنجازها " ويكون الحلم في هذه الحالة إرثا للبشرية جميعا وعناصره هي رموز لفكر الحلم الشعوري وتظل البواعث الغريزية المكبوتة والرغبات اللاشعورية ذات تأثير في أفكار الناس وإعمالهم" [3]

([1]) شعر محمد محسن مشاري/ ص ٦٣ــ ٦٥

([2]) محمد زكي العشماوي/ دراسات في النقد الأدبي المعاصر/ دار الشروق /القاهرة/ ١٩٩٤م /ص:٤٥.

([3]) أحمد كمال زكي/ الأساطير/ دار العودة بيروت/ ١٩٧٩م/ ص ١٢٦.

الدعوة إلى إنشاء المشاريع الإنمائية:

ألح المشاري كغيره من الشعراء السعوديين على الدعوة إلى نهضة اجتماعية وتنموية شاملة لتحقيق الرقي والنهوض في شتى ميادين الحياة ، في لقاء مع أمير منطقة جازان يعرض المشاري بين يديه حاجات مدينته صبيا وقراها التابعة لها إلى مرافق خدماتية :

أَنَا فِي حِيرَةٍ وَمَا عُدْتُ أَدْرِي هَلْ أَنَا قَادِرٌ عَلَى أَنْ أُوَفِّي
بِقَرِيضِي تَوْضِيحَ مَطْلَبِ صَبْيَا فِي احْتِفَالٍ عَنْهُ يُقَصِّرُ وَصْفِي
يَا أَمِيرِي آمَالُنَا فِيكَ تَتْرَى وَأَمَانِي يَرْنُو لَهَا كُلُّ طَرْفِ
وَأَهَمُّ الآمَالِ مُسْتَشْفَى صَبْيَا إِنَّهُ مِرْفَقٌ بِأَصْعَبِ ظَرْفِ
لَمْ يَعُدْ قَادِرًا إِذَا ظَلَّ فِيمَا هُوَ فِيهِ بِطَاقَةٍ لا تُكَفِّي
لَيْسَ صَبْيَا وَمَا تَلَتْ مِنْ قُرَاهَا تَتَلَقَّى الْعِلاجَ فِيهِ فَتُلْفِي
كُلَّ شَيءٍ كَمَا أَرَادَتْ وَلَكِنْ غَيْرَ ذَاكَ الْكَثِيرُ، وَاللهُ يَشْفِي
مِنْ بَنِي مَالِكٍ وَآلِ حَرِيصٍ وَمِنَ الرَّيْثِ مِنْ هَرُوبٍ وفيفي
مِنْ جِبَالِ الْعِزِّي وَعَيْبَانَ يَأْتُوا، كَمْ يُعَانُوا مِنْ فَتْكِ دَاءٍ وَضَعْفِ
كُلُّهُمْ يَقْصِدُوهُ، وَالْحَالُ مِنْهُمْ يَا أَمِيرِي يُثِيرُ رُعْبِي وَخَوْفِي
وَمَشَارِيعُ صَرْفِ صَحِي يَقِينَا شَرَّ دَاءٍ فِي بَاطِنَ الأرض مَخْفِي
مَاءُ بَيّارَةٍ يُخَالِطُ مَاءً هُوَ لِلشُّرْبِ، وَالنَّتِيجَةُ حَتْفِي
يَا أَمِيرِي وَلِلأَنَابِيبِ مَرَّتْ عَشَرَاتُ السِّنِينِ مَرَّتْ كَطَيْفِ
وَاعْتَرَاهَا الصَّدَأُ فَنَرْجُو بَدِيلاً فِيهِ نَفْعٌ، وَلِلْمَخَاطِرِ يِنْفِي[1]

المشاري من أولئك النفر الذين يسعون في حاجات الناس وقضائها لهم إلى أولي الأمر وقد أدرك مبكرا ما تعنيه مفردة مدينة كونه عمل في بلدية صبيا، فقد رأى تطورها البديع ونموها المذهل الذي لم يواكبه إنشاء بنية تحتية تفي بمتطلبات الناس في الأمد

(1) شعر محمد محسن مشاري،ص:٩٢.

القصير المنظور، الهمّ الجمعيّ يؤطر الذات المتفانيـــة لتحمـــل دون وعـــي مؤرقـــات الجماعة الذي يتعامل الفرد معها ومن خلالها فتتشكل العلاقة بين أنا المتكلم وأنا العـــالم من خلال حركة الحلم.

تربية الأبناء:

يقال : إن الرجال تُصنع صنعاً، ولكن صناعتهم أشق من صنع الآلات وأخطر، وبحسن صناعتهم تنال الريادة في الأرض، والقيادة في الأمم، والصدارة في الشعوب، ولكي يكون هذا الصنع متكاملا فلا بد من تربية ناجحة ، ولابد من معرفة أسس هذه التربية ومعالمها وهذا ما يلح شاعرنا المشاري عليه ويبسطه في عدد من نصوصه .فهو يرى أن التربية هي الإعداد للحياة، وصقل العقول، وتهذيب السلوك، وتنمية الذوق الرفيع، والتدرج في مراقي الكمال الإنساني، إنها غرس ودرس، وغاية ورعاية، وعطاء ونماء، تربية دقيقة جادة تقوم على بناء المجتمع، وتصحيح الخاطئ من مفاهيمه، وإقامة المعوج في سلوكه. تربية تجمع بين سلامة المعتقد وتأديب النفس وتهذيب العقل وبناء الجسم.التربية عنده هي التي تعمل على تماسك البناء الاجتماعي، وتحقق أمن الفرد، وتشبع حاجاته.

وبعد ذلك فالتربية وسيلة توحيد الأمة، وربط أفرادها بغايات عليا، ومصير مشترك، تحفظ الماضي المجيد، وترسم المستقبل المأمول، إنها العقيدة والنظام، والقيم التي تميز الأمة وتؤكد استقلالها، بل هي سبيل تميزها وتفوقها.

إنها عملية تبدأ من قبل الولادة لتنشئ جيلاً هم محاضن التربية، وهم عناصر الثبات والتغير في الأمة، إيجاباً كان ذلك أو سلباً: " ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه "(١)

ومهمة التغير والثبات التي تراد للأجيال ليس لها أداة إلا التربية، بكل معانيها ووسائلها، وميادينها وساحاتها، في البيت وفي السوق، في المدرسة وفي المسجد، في المكتب والمتجر، في الكتاب والمذياع، في المقروء والمسموع والمشاهد.

ومقوماتها وأسسها منهج في الدين والعقيدة، وقدوة حسنة في الوالدين والأقربين والأصدقاء والمعلمين، علوم ومعارف متجددة تتوافق مع الطبيعة وتتماشى مع الحاجة.

---

(١) انظر صحيح البخاري (٣٤١/١ و٣٤٨ و٣٠٨/٣)

نتأمل هذا الخطاب من الشاعر إلى ابنه ، وهو وإن حمل حوارا من جانب واحد فإنه يخبئ بين طياته نقاشا وحوارات ساخنة تدور رحاها في كل أسرة:

لأجْلِكَ مَا يَلْقَى أَبُوكَ وَمَا لَقِي فَكُنْ مِثْلَ مَا أَرْجُو وَلا تَكُنْ الشَّقِي
أَيَا وَلَدِي مَا أَجْمَلَ الْبِرَ بِالْفَتَى وَمَنْ لَمْ يَكُنْ بَرًّا فَغَيْرُ مُوَفَّقِ
فَمَا فِي حَيَاةِ الْمَرْءِ خَيْرٌ مِنَ التُّقَى وَ لا خَابَ إِنْسَانٌ لِذِي الطُّولِ يَتَّقِي
عَلَيْكَ بِبِرِّ الْوَالِدِينِ فَإِنَّمَا بِبِرِّهِمَا فِي ذُرْوَةِ الْخَيْرِ تَرْتَقِي
وَبِرُّكَ بِالأَبَوَيْنِ يَأْتِي مُرَادَفًا لِتَوْحِيدِ عَلامِ الْغُيُوبِ، فَهَلْ بَقِي
لِمَنْ عَقَّ عُذْرٌ بَعْدَمَا جَاءَ وَاضِحًا بِنَصٍّ كِتَابِ اللهِ فِي خَيْرِ مَنْطِقِ
فَكُنْ طَائِعًا للهَ مَا عِشْتَ مُخْلِصًا لِتَوْحِيدِهِ تَأْوِي لِرُكْنٍ مُوَثَّقِ
إِذَا مَا أَرَدْتَ الْفَوْزَ فِي الْخُلْدِ مُنَعَّمًا بِعَيْشٍ هَنِيٍ لا بِعَيْشٍ مُرَنَّقِ
وَلا تَقْتَرِبْ مَا حَرَّمَ اللهُ إِنَّهُ سَيُلْقِي بِكَ الشَّيْطَانُ فِي شَرِّ مَأْزَقِ
وَبِرَّ بِذِي الْقُرْبَى وَلا تَكُ قَاطِعًا بِهِمْ* صِلَةً وَابْذُلْ لَهُمْ فِي تَرَفُّقِ
فَوَصْلُكَ ذِي الْقُرْبَى يَزِيدُكَ رِفْعَةً وَإِيَّاكَ وَالْبُخْلَ الذَّمِيمَ لِكَيْ تَقِي*
لِعِرْضِكَ* مِمَّا قَدْ يُقَالُ لِمُمْسِكٍ وَمَنْ ذَا الذِي يَرْضَى بِعِرضٍ مُمَزَّقِ
وَكُنْ حَسَنَ الأَخْلاقِ فِي كُلِّ حَالَةٍ وَفِيًّا صَدُوقَ الْقَوْلِ غَيْرَ مُلَفَّقِ
وَلا تَكُ كَذَّابًا فَتُصْبِحَ خَاسِرًا فَمَا لِكَذُوبٍ فِي الْوَرَى مِنْ مُصَدِّقِ
وَلا تَكُ غَدَّارًا وَلا تَكُ حَاسِدًا فَمَا يَتَرَدَّى فِيهِمَا غَيْرُ أَحْمَقِ
وَلا تَكُ نَمَّامًا وَلا تَكُ حَاقِدًا وَلَسْتَ* بِسَبَّابٍ وَلا مُتَشَدِّقِ
وَإِنْ حَلَّ مَكْرُوهٌ فَلا تَكُ جَازِعًا لِضُرٍّ وَلِلصَّبْرِ الْجَمِيلِ تَخَلَّقِ
وَسِرْ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ فَالْحَقُّ أَبْلَجٌ وَإِيَّاكَ مَعْسُولَ الْكَلامِ الْمُنَمَّقِ
كَلامٌ كَطَعْمِ الشَّهْدِ يُخْفِي وَرَاءَهُ سُمُومًا، وَهَلْ لِلسُّمِ مِنْ مُتَذَوِّقِ؟!
وَكُنْ وَاعِيًا شَهْمًا ذَكِيًّا مُحَنَّكًا لِئَلا يَقُولُوا* ذَا غَبَاءٍ، وَأَخْرَقِ

وَسَارِعْ إِلَى الْخَيْـرَاتِ وَالْفَـرْضَ فَأْتِـهِ بِقَلْـــبٍ سَـــلِيمٍ فِـــي أَدَاءٍ مُنَـــسَّقِ
وَجَـــارِكَ أَكْرِمْـــهُ وَكُـــنْ مُتَرَفِّقًـــا بِجَـــارِكَ إِنَّ الفَـــضْلَ لِلْمُتَرَفْـــقِ
وَكُـــنْ لِكِبَـــارِ الـــسِّنِ ابْنًـــا مُؤَدَّبًـــا يُحِبُّـــوكَ* حُبًـــا دَائِمًـــا فِـــي تَفَـــوُّقَ
وَكُـــنْ لِلَّـــذِي فِـــي مِثْـــلِ سِـــنِّكَ سَـــاعِدًا فَهُمْ إِخْوَةٌ فِـــي سَـــاعَةَ الـــضِّيقِ تَلْتَقِـــي
وَكُـــنْ لِـــضَعِيفِ الْقَـــوْمِ عَوْنًـــا وَرَحْمَـــةً فَكُـــلُّ رَحِـــيمٍ خَيْـــرُهُ فِـــي تَـــدَفُّقِ
وَكُـــنْ قُـــدْوَةً لِلْخَيْـــرِ فِـــي الْبَيْـــتِ إِنَّمَـــا وَرَاءَكَ أَهْـــلُ الْبَيْـــتِ تَـــسْعَى لِتَلْحَـــقِ
فَحَـــافِظْ عَلَـــى كُـــلِّ الْوَصَـــايَا بِدِقَّـــةٍ وَكُنْ مِثْلَ مَا أَرْجُـــو وَلَا تَكُـــنْ الـــشَّقِي[1]

نقرأ في هذه القصيدة مشاعر الشاعر وما تحمله نفسه من أخلاق جميلة يحتذيها هو في حياته وقد جربها في علاقاته وأحب نقل خلاصة التجربة إلى ابنه عبر حوار هادئ " فالحوار هو الطريق إلي التفتح . الحوار سؤال يفضى إلي سؤال . السؤال يحول نفسه ، ويطرح مدى واسعاً من خلال كل شيء . وتبدو الأسئلة جميعاً انطلاقاً رحباً لا نغترب فيه عن أنفسنا . المساءلة إذن نضال حي يغرى الوجود بالتكشف ، ويعبر الاختلاف بين الوجود ومظاهره" [2]

إننا حين نستمع إلى هذه الشذرات التربوية من الشاعر المشاري ، نتذكر قول عمر بن عتبة لمؤدب ولده: ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك، فإن عيونهم معقودة بك، فالحسن عندهم ما صنعت، والقبيح عندهم ما تركت، علّمهم كتاب الله، ولا تملهم فيتركوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، وارو لهم من الحديث أشرفه، ومن الشعر أعفه، ولا تنقلهم من علم حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام مشغلة للأفهام، وعلمهم سنن الحكماء، وجنبهم محادثة السفهاء.

ووصية هارون الرشيد لمؤدب ولده: لا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيدها إياه من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقومه ما استطعت بالقرب والرفق والملاينة، فإن أباها فعليك بشيء من الشدة والغلظة.

([1]) شعر محمد محسن مشاري/ ص: ٩٧و٩٨ .

([2]) مصطفي ناصف/ نظرية التأويل / النادي الأدبي الثقافي في جدة /١٤٢٠هـ / ص ٩١.

و نصح عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لصاحبه ، يقول: حدث الناس ما حدجوك بأبصارهم، –أي: حددوا النظر إليك– وآذنوا إليك بأسماعهم، –أي: أصغوا وأنصتوا– فإذا رأيت منهم فترة –أي: مللاً– فأمسك، وقليل نافع خير من كثير ضائع.

البر وهو الكلمة الجامعة لكل خير من الأقوال والأفعال والاعتقادات، والكذب يهدي إلى الفجور، والفجور: كلمة تجمع أنواع الشرور.

والحث على التزام التقوى والدعوة إلى صلة الرحم، والتزام الصدق وتجنب الكذب، في الأقوال والأفعال، ألم يقل عليه الصلاة والسلام : " عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر "

ويمثل ذلك عبر توظيف تراكيب لغوية تشير إلى توتر الدلالة التي تترك بصمتها على السياق الشعري ، فتأتى هذه التراكيب اللغوية هي الأخرى متمتعة بقدر من التوتر.

وفي نص آخر ملئ بالمشاعر والأحاسيس يخاطب الشاعر بنيه بكل صدق ومحبة، بعاطفة الأب الخبير المجرب وقد عركته السنون وفحصته الأيام، طالبا إليهم أن يكونوا خير عون له في عجزه حين كبره ومرضه وقلة حيلته فمن سواهم يقدر أن يقوم بذلك من سيرعى أما مسنّة أعياها الشيب ومن يقوم بحاجات صبية صغار لا حول لهم ولا قوة :

مَنْ مُعِينِي إِذَا لَزِمْتُ سَرِيرِي ... تَحْتَ وَطْءِ السِّنِينِ أَوْ مَنْ مُجِيرِي؟

مِنْ عَوَادِي الزَّمَانِ وَهِيَ سِهَام ... نَافِذَاتٌ، وَكَمْ لَهَا مِنْ كَسِيرِ

أو بَرَانِي السُّقَام فَاخْتَلَّ جِسْمِي ... لَمْ أَعُدْ أَسْتَطِيعُ وَصْلَ الْمَسِير*

مَنْ سَيَرْعَى فِي الْبَيْتِ أُمًّا رَؤُمًا ... وَعِيَالا يَبْكُونَ بَعْدَ مَصِيرِي؟*

إِنْ أَمُتْ تُرَى مَنْ سَيَحْمِلُ عَنْهُمْ ... مَا سَيَلْقَوْنَ مِنْ عَنَاءٍ كَبِيرِ ؟

غَيْرَ رَبِّي ثُمَّ الْخَلِيفَةُ مِنِّي ... مِنْ ذَوِي الرُّشْدِ مِنْ خِيَارِ الذُّكُورِ

فَإِذَا كَانَ مَنْ سَيَخْلُفُ بَعْدِي ... حَسَنَ الْفِعْلِ طَيِّبَ التَّدْبِير

مُسْتَقِيمَ الْخُطَا عَلَى الدَّرْبِ وَاعٍ ... بِدُرُوبِ الْحَيَاةِ حَيَّ الضَّمِير

عَرَفَ اللهَ فَاسْتَمَدَّ هُدَاهُ ... مِنْ سَنَاهُ، وَسَارَ سَيْرَ الْبَصِير

عِـشْتُ حَيًّـا مُمَـثَّلا فِـي شَـبَابِي لَـمْ أَمُـتْ رَغْـمَ أَنَّنِـي فِـي الْقُبُـور
يَـا شَـبَابَ الْـبِلادِ ظَنِّـي كَبِيـرٌ أَنْ تَكُونُـوا مِـنَ الـشَّبَابِ الْجَـدِيرِ
بِرِضَـا اللهِ إِذْ تَبَـرُّونَ شَـيْخًا أَنْفَـقَ الْعُمْـرَ فِـي الْعَطَـاءِ الْـوَفِيرِ
لِبَنِيـهِ لِكَـيْ يُـوَفِرَ عَيْـشًا فِـي صَـفَا الْجَـوِّ بَعْـدَ يَـوْمٍ مَطِيـرِ
وَبِـأُمٍّ حَبَـتْكُمُ كُـلَّ عَطْـفٍ وَحَنَـانٍ وَمَـا اشْـتَكَتْ مِـنْ قُـصُورِ
تَـسْهَرُ اللَّيْـلَ كَـيْ تَنَـامَ وَتَبْكِـي حِـينَ أَرْسَـلْتَ أَنَّـةً مِـنْ سَـرِيرِ
أَوْ رَأَتْ وَجْهَـكَ الحَبِيـبَ إِلَيهَـا عَابِـسًا غَيْـرَ طَـافِحٍ بِالـسُّرُورِ
تَتَـأَذَى وَإِنْ رَأَتْ مِنْـكَ وَجْهًـا بَاسِـمَ الثَّغْـرِ تَنْتَـشِي مِـنْ حُبُـورِ
أَمْ تُـرِى يَـا شَـبَابُ أَنْـسَاكَ دَهْـرٌ كَثُـرَتْ فِيـهِ مُغْرِيَـاتِ الأُمُـورُ
فَتَنَاسَـيْتَ لِلأُبُـوَّةِ حَقًّـا أَنْـزَلَ اللهُ فِـي الْكِتَـابِ الْمُنِيـرِ
وَبِـلادٌ لَهَـا عَلَيْـكَ حُقُـوقٌ أَتُرَاهَـا تَـضِيعُ بَـيْنَ الـسُّطُورِ
إِنَّ حَـقَّ الْـبِلادِ أَغْلَـى وَأَسْـمَا مِـنْ كُنُـوزٍ وَعَالِيـاتِ الْقُـصُورِ
كَـمْ نَعِمْنَـا بِعَيْـشِهَا وَلَهَوْنَـا وَشَـرِبْنَاهُ صَـافِيًا مِـنْ نَمِيـرِ
وَلَعِبْنَـا فِـي مُقْمِـرَاتِ اللَّيَـالِي وَالْتَحَفْنَـا ظِلالَهَـا فِـي الْهَجِيـرِ
وَافْتَرَشْـنَا تُرَابَهَـا وَهُـوَ أَهْنَـا فِـي صِـبَانَا مِـنَ الْفِـرَاشِ الْـوَثِيرِ
فَهِـيَ أَوْلَـى بِعَطْفِنَـا وَرِضَـانَا وَوَلانَـا وَخَـالِصَ التَّقْـدِيرِ*
إِنَّهَـا الآنَ تَـشْتَكِي لِبَنِيهَـا لأُولِـي الْـوَعْيِ وَالـشَّبَابِ الْغَيُـورِ
وَتُنَـادِي بِنَبْـرَةٍ ذَاتَ وَقْـعٍ يَـا شَـبَابِي وَعُـدَتِي وَنَـصِيرِي
مَـا لِـبَعْضِ الـشَّبَابِ أَخْلَـفَ ظَنِّـي يَـصْرِفُونَ الأَمْـوَالَ فِـي أَرْضِ غَيْـرِي
وَهُـوَ مَـالِي مَنَحْتُـهُ لِعِيَـالِي هَـلْ تَنَاسُـوا جَمِيـلَ صُـنْعِي وَخَيْـرِي
لَـمْ يَعُـودُوا يُفَكِّـرُوا بِمَـصِيفٍ فِـي جِبَـالِ الْهَـدَا وَلا فِـي عَـسِيرِ

وَهِـــيَ مِنِّـــي وَقِطْعَـــةٌ مِـــنْ كَيَـــانِي وَهِـــيَ أَوْلَـــى بِالاهْتِمَـــامِ الْكَبِيـــرِ
فَهِـــيَ أَبْهَـــى مَنَـــاظِرًا وَهَوَاهَـــا رَقَّ فَهُـــوَ النَّـــسِيمُ وَقْـــتَ الـــسُّحُورِ
وَجِبَـــالٌ مُرُوجُهَـــا الْخُـــضْرُ تُنْـــسِي مَـــا تُعَانِيـــهِ فِـــي خَفَايَـــا الـــصُّدُورِ*
مِـــنْ هُمُـــومٍ وَلِلطَّبِيعَـــةِ فِيهَـــا أَثَـــرُ الـــسِّحْرِ مَـــا لَهَـــا مِـــنْ نَظِيـــرِ
وَخَرِيـــرُ الْمِيَـــاهِ أَنْغَـــامُ مُوسِـــيقَى وَشَـــدْوُ الطُّيُـــورِ يُـــذْكِي شُـــعُورِي
يَبْعَثُ الـــشَّجْوَ فِـــي النُّفُـــوسِ فَيُحْيِـــي ذِكْرَيَـــاتِ الْحَبِيـــبِ فَـــوْقَ الْغَـــدِيرِ
وَشَـــذَاهَا وَلا تَـــسَلْ عَـــنْ شَـــذَاهَا فَهُـــوَ عِطْـــرٌ مِـــنْ نَفْـــحِ تِلْـــكَ الزُّهُـــورِ
وَحَفِيفُ الأَشْـجَارِ فِـي الـسَّفْحِ مِنْهَـا كَمُنَاجَـــــاةِ فَاتِنَـــــاتِ النُّحُـــــورِ
كُلُّ شَيءٍ فِي الْغَـرْبِ والـشَّرْقِ مِمَّـا يُـــبْهِجُ الـــنَّفْسَ مِـــنْ جَمَـــالٍ مُثِيـــرِ
فِـــي رُؤَاهَـــا وَفِـــي الْحَـــضَارَةِ مِنْهَـــا هُـــوَ عِنْـــدِي وَلَـــمْ يَكُـــنْ بِالْيَـــسِيرِ
فَلِمَـــــاذَا تَنَكَّـــــرُوا لِجَمِيلِـــــي؟ هَـــلْ غَـــدَوْا عَـــاجِزِينَ فِـــي التَّفْكِيـــرِ؟
أَنَـــا أَوْلَـــى بِكُـــلِّ قِـــرْشٍ لأَنِّـــي سَـــوْفَ أُبْقِيـــهِ لاعْـــتِلالِ الْكَبِيـــرِ
إِنْ غَدَا عَـاجِزًا عَـنِ الْكَـسْبِ يَوْمًـا لِعِـــــلاجِ الْمَـــــرِيضِ لِلتَّعْمِيـــــرِ
لاكْتِـــسَابِ الْعُلُـــومِ فِـــي كُـــلِّ حَقْـــلٍ لِلزِّرَاعَـــــاتِ لِلْغِـــــذَا لِلْفَقِيـــــرِ
إِنْمَـــا الْغَيْـــرُ يَـــسْتَغِلُ شَـــبَابِي كَـــيْ يُنَمِّـــي وَسَـــائِلَ التَّـــدْمِيرِ
فَـــإِذَا كُنْـــتَ لا تُفَكِّـــرُ إِلا فِـــي ارْتِحَـــالٍ وَسَـــهْرَةٍ وَسَـــمِيرِ
لَـــمْ يَعُـــدْ هَمُّـــكَ الزَّمَـــانُ وَمَـــا قَـــدْ يَعْتَرِينِـــي مِـــنْ عَادِيَـــاتِ الـــشُّرُورِ
فَلِـــيَ اللهُ ثُـــمَّ عَـــوْنِي مَلِيكِـــي قَـــدْ كَفَـــانِي ذُلَّ الـــسُّؤَالِ الْمَرِيـــرِ[1]

تتجلى الوطنية في أسمى معانيها في هذه القصيدة فهي تمثل الحس الوطني عند المشاري وتحمل عددا من ملامح هذا الحس النبيل لعل من أبرزها الحرص على تشجيع السياحة الداخلية .

(1) شعر محمد محسن مشاري/ص:٧٩ــ٨٤.

يعلم شاعرنا أن التقليد فطرة مغروسة في سلوك الطفل، فهو يقلد ما يراه، إن حسناً فحسن، وإن سيئاً فسيء، ومن ثم فلا ينبغي أن تقع عين الطفل إلا على كل مظهر حسن، وعلى ألا تتلقى أذناه إلا كل لفظ مهذب، ولا ينمو رصيده من المشاهدات والمدركات والمعارف إلا على كل تصرف رشيد وكل عمل مفيد. والنفوس مجبولة على حب التملك والتفوق والثناء، فلا ينبغي أن يغفل الأب والمربي عن الحوافز المادية، والمشجعات الأدبية، فتتنوع الحوافز والجوائز فيُمنح مالاً، ويُهدى كتاباً، ويُشجع بالألفاظ المسموعة والمكتوبة، ناهيك بالحافز الأخروي، وربط الناشئة بما عند الله، فما عند الله خير وأبقى من عظيم الأجر وجزيل الثواب، وهذا يتناسب مع كبار الناشئة قبل صغارها.

ينبغي أن يسود في التربية احترام الكبير، ورحمة الصغير، وحفظ الحقوق، واحترام الممتلكات العامة والخاصة، والعطف على المحتاج، ورعاية المريض والعاجز، والرفق بالحيوان، والتنظف والتجمل، والشجاعة في القول، والرأي والعمل، و{المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير }.

آفات وعلل اجتماعية :

من أسوأ العلل التي تضايق منها شاعرنا التنكر للمعروف، والرياء، والتملق، والنفاق، والمخادعة، وقد تعددت الصور التي عالج بها الشاعر المشاري هذه الآفات والعلل بين شرح لها وتفصيل وبين رصد ملامح ووصف حالات أصحاب تلك العلل وبين وصف الدواء والحث على التخلص من تلك الأدواء المشينة ، فهو يحكي على لسان صديق مقرب منه حال أحد موظفيه الذي قلب له ظهر المجن وكشر في وجهه بعدما كان يهش ويبش له ، يقول :

يَـا مَـنْ زَعَمْـتَ مَحَبَّتِـي وَإِخَـائِي ... وَضَحِكْتَ فِـي وَجْهِـي وَسِـرْتَ وَرَائِـي

أَيَـامَ كُنْـتُ وَلِلْوَظِيفَـةِ سُـلْطَةٌ ... تُرْجَـى لِنَيْـلِ مَـصَالِحٍ دَنْيَـاء

إِنِّـي لأَذْكُـرُ مَـا تُعَـامِلُنِي بِـهِ ... إِبَّـانَ ذَاكَ وَكَيْـفَ كُنْـتَ تُرَائِـي

فَإِذَا حَـضَرْتَ يَظَـلُّ وَجْهُـكَ مُـشْرِقًا ... تُبْـدِي الرِّضَـا وَجَهَـدت فِـي إِرْضَـائِي

وَإِذَا أَقُـولُ فَـصَادِقٌ وَمُـصَدَّقٌ ... وَإِذَا أَغِيـبُ سَـأَلْتَ عَـنْ أَنْبَـائِي

قَـدْ كُنْـتُ أَحْـسِبُ مَـا أَرَاهُ مَحَبَّـةً ... فِـي اللهِ خَالِـصَةً بِـلا أَهْـوَاء

حَتـــى إِذا ذَهَـــبَ الزَّمَـــانُ بِـــسُلْطَتِي وَنَـــضَوْتُ ذَاكَ الثَّـــوبَ عَـــنْ أَعْـــضَائِي

وَانْجَابَ عَنْ عَينِي الغُبَـارُ وبَـانَ لِـي إِذْ ذَاكَ غِـــشُّكَ لِـــي وَبَـــانَ غَبَـــائي

وَظَهَـرْتَ تَفْـضَحُكَ الحَقِيقَـةُ عَارِيًـا مِـــنْ كُـــلِّ مَعْـــرُوف وَدُونَ وَفَـــاء

أَيْقَنْـــتُ أَنـــي كُنْـــتُ مَخْـــدُوعًا بِمَـــا تُبْدِيـــه مِـــنْ حُـــبٍّ وَمِـــنْ إِطْـــرَاء

وَجَمِيعُ مَـا قَـد كُنْـتَ تَغْمُرُنِـي بِـهِ مِـــنْ فَـــيْضِ إِكْـــرامٍ وَحُـــسْنِ ثَنَـــاء

مَـــا ذَاكَ إِلا الزيْـــفُ يَفْـــرِي ظَـــاهِرًا مَارَسْـــتَهُ بالفعـــلِ أَنـــت إِزَائـــي

هَلا حَرَصْـتَ علـى الـصداقة بيننـا فالْحُـــبُّ أَسْـــمَا مِـــن رَفِيـــعِ بِنَـــاء

وَالْحُبُّ أَبْقَـى مِـنْ عُـرُوضِ تِجَـارَةٍ تُغْرِيـــكَ ثُـــمّ مَـــصِيرُهَا لِفَنَـــاء

سُـرْعَانَ مَـا أَنْكَرْتَنِـي وَقَلَبْـتَ لِـي ظَهْـرَ المِجَـنِّ وَمَـا حَفِظْـتَ إِخَـائي

وَتَغَيَّـرَتْ مِنْـكَ الطِّبَـاعُ ولاحَظَـتْ عَيْنِـــي عَلَيـــك مَلالَـــة وَتَنَـــائي

مَـا عُـدتَ بِالحَمَـلِ الوَدِيـعَ عَرَفْتُـهُ بَلْ صِـرْتَ مِثْـلَ الـذئْبِ فِـي الْخَلْـوَاء

وَتَبَـدَّدَتْ تِلـك البَـشَاشَةُ بَعْـدَمَا كَانَـتْ تَلُـوحُ عَلَيْـكَ عِنْـدَ لِقَـائي

فَإِذَا حَـضَرْتَ يَظَـلُّ وَجْهُـكَ عَابِسًا تُبْـدِي الجَفَـاءَ ومَـا تُطِيـقُ بَقَـائي

وَإِذَا طَلَبْـتَ إِلَيـكَ أَحْقَـرَ حَاجَـةٍ أَعْرَضْـتَ عَـنْ طَلَبِـي وَخَـابَ رَجَـائي

وكَأَنَّمَـا صَـمَمٌ أَصَـابَكَ لَـمْ تَعُـدْ أُذُنَـاكَ تَـسْمَعُ كَـي تُجِيـبَ نِـدَائي

بَلْ مَا كَفَـاكَ فَرُحْـتَ تَـنْهَشُ ضَـارِيًا لَحْمِـــي وَتَـــشْتُمُ حَاقِـــدًا آبَـــائي

مَـا هَكَـذَا طَبْـعُ الكـريم وَإِنَّمَـا طَبْـعُ الكـريم الْعَـوْنُ فِـي الـلأوَاء

هَيْهَـاتَ أَنْ يَرْعَـى الـصدَاقَةَ جَاحِـدٌ مُتَلَـــوِّنٌ كَتَلَـــوُّنِ الْحِرْبَـــاء

وَالْبَوْنُ شَاسِعٌ بَيْنَ مَـن لَـبِسَ التُّقَـى ثَوْبًـا عَلَيْـهِ وبَـينَ ثَـوْبِ رِيَـاء

فَـاخْتَرْ لِنَفْـسِكَ مَنْهَجًـا تَرْضَـى بِـهِ إِنَّ الحَيَـــاةَ كَثِيـــرَةُ الأَرْزَاء

أَمَّـــا أنـــا سَـــأظَلُّ عُنْـــوانَ الوفَـــا تَـــأْبَى الدنيَّـــةَ شِـــيمَتِي وَإِبَـــائي[1]

ومن منكدات العيش على الشاعر المشاري ما يراه من التكالب علـى الـدنيا واكتنـاز الأموال والبخل بها عن مستحقيها والسلوكيات القبيحة لدى بعض أولئك الأغنياء الـذين استشرى فيهم حب المال والتهافت على حطام الدنيا ومتاعها الزائل، وللأسف أثر حـب المال فوئدت القيم والمبادئ النبيلة، وظفوا أموالهم في سبيل الشرور والآثام ممـا مكـن لمظاهر اجتماعية بغيضة، أدت إلى اتساع الفجوة بين الفقراء والأغنياء كالكبر وغمـط الناس واحتقارهم، ومن ثم ظهرت الفوارق الطبقية والترسيخ لها فبلأمس رغـم الفقـر وقلة الحيلة وشظف العيش كانت النفوس صافية والقلوب متآلفة:

إِنَّمَا الْحَـالُ لَـمْ يَكُـنْ حَالُنَـا الأَمْـس وَشَـــتَّانَ بَـــيْنَ مَـــاضٍ وَآنِ

كُنْـتُ فِـي إِخْـوَةٍ كِـرَامِ السَّجَايَا كُـلُّ فَـرْدٍ فِـي حُبِّـهِ مُتَفَـانِي*

لأَخِيـهِ فَمَـا يَـرَى مِنْـهُ إِلا مَـا يَـزِدْهُ* بَوَاعِـثَ اطْمِئْنَـانِ

يَـوْمَ كَانَـتْ قُلُوبُنَـا فِـي ائْـتِلافٍ وَرِبَـاطٍ يَـشُدُّهَا كالْبَنَـانِ

لا حَـزَازَاتَ لا مَقَاصِـدَ سُـوءٍ تَعْتَرِينَـا وَلا لَـوَاحِظَ شَـانِي

لَـيْسَ مِنَّـا مُقَـرَّبٌ وَبَعِيـدٌ يَغْمُـرُ الْحُـبُّ كُـلَّ قَـاصٍ وَدَانِـي

كَـمْ مُعَانَـاتٍ* قَـدْ تَوَالَـتْ عَلَيْنَـا وَظُـرُوفٍ أَقْـسَى مِـنَ الـصُّوَّان

قَـدْ لَقِينَـا فَمَـا جَزِعْنَـا وَلَكِنَّـا صَـبَرْنَا لِقَـسْوَةِ الامْتِحَـانِ

قَدْ تَرَى الْمَـرْءَ بَاسِـمَ الثَّغْـرِ يَمْـشِي فِـي اعْتِـزَازٍ وَجَيْبُـهُ فِـي هَـوَانِ

هِي أَهْنَـا الـسَّاعَاتِ بَـلْ هِـيَ أَحْـلا مِـنْ سِـنِينٍ مَـضَتْ بِغَيْـرِ تَـدَانِي

وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ مَعَارِكِ الْفَقْـرِ ظَلُّـوا فِـي اتِّحَـادٍ كَقُـوَّةِ الْبُنْيَـانِ*[2]

لقد كانوا يدركون أن علاج الهموم يمكن في الرضا بما قـدر الله ، والـصبر علـى الابتلاء واحتساب ذلك عند الله ،فإن الفرج لا بد آت.

([1]) شعر محمد محسن مشاري / ص ٣١ و ٣٢ .

([2]) المصدر السابق / ص ١١٧ ـــ ١١٩

والساخطون والشاكون لا يذوقون للسرور طعما . فحياتهم كلها سواد دامس ، وليل حالك، أما الرضا فهو نعمة روحية عظيمة لا يصل إليها إلا من قوي بالله إيمانه ، وحسن به اتصاله، والمؤمن راض عن نفسه ، وراض عن ربه، لأنه آمن بكماله وجماله ، وأيقن بعدله ورحمته، ويعلم أن ما أصابته من مصيبة فبإذن الله أدرك الأولون ذلك فنجوا وأفلحوا.

لذا تحضر اللغة بمستواها الشعري ومستواها التداولي .

واليوم غير الأمس تفشى في الناس المال فسعوا إليه وهرولوا نحوه ورموا عنهم أحمال الماضي الخلق القويم والعفة وحب الخير للناس فتفرقوا وانغمسوا في ملذات الحياة وعاشوا لأنفسهم فتفشى فيهم الطمع والجشع ونال منهم الحقد والحسد وأوجس كل واحد من أخيه خيفة وشراً وغلبوا سوء الظن على حسنه فبارت النفوس وكسدت الأخلاق؛ مما جعل تلك الصبغة الحزينة بادية في عدد من نصوص الشاعر تشي بمعاناته؛ ففي المعاناة الشعرية للشاعر نرى ذلك الوجد الملتهب بعمق الانتماء لبلدته العزيزة (صبيا) التي كثيراً ما بثها شجونه ونجواه وحنينه وتوزعت تلك الهواجس :

وَهِيَ الْيَومُ رَغْمَ مَا هِيَ فِيهِ ... مِنْ نَعِيمٍ يَسُوْدُهَا وَأَمَانِي

لَمْ يَعُدْ يَطْفَحُ السُّرُورُ عَلَيْهَا ... غَيْرَ بِشْرٍ مُزَيَّفِ اللَّمَعَانِ

مَا تَرَى غَيْرَ طَامِعٍ رَاحَ يَشْكُو ... وَيُعَانِي مِنْ قُسْوَةِ الْحِرْمَانِ

فَهُوَ يَسْعَى لِيَجْمَعَ الْمَالَ حَتَّى ... لَوْ بِأُسْلُوبٍ غَادِرٍ خَوَّانِ

وَحَقُودٍ فِي قَلْبِهِ الْحِقْدُ يَغْلِي ... قَادَهُ الْحِقْدُ فِي هَوَى الشَّيْطَانِ

أَضْمَرَ الْغَدْرَ يَبْتَغِي الشَّرَّ حِقْدًا ... لأَخِيهِ لِطَعْنِهِ بِالسِّنَانِ*

مِنْ وَرَا الظَّهْرِ* لِلتَّخَلُّصِ مِنْهُ ... كَيْفَ يَرْضَى بِهِ مُنَافِسُ ثَانِ*

حَسَدًا مِنْهُ إِذْ رَآهُ وَجِيهًا ... طَيِّبَ الذِّكْرِ ذَا طِبَاعٍ حِسَانِ

فَرَّقَتْنَا يَدُ الْمَطَامِعِ لَمَّا ... أَصْبَحَ الْمَالُ سَيِّدًا فِي زَمَانِي

فَتَرَى الأَخَ يَشْتَكِي مِنْ شَقِيقٍ ... وَلأَجْلِ الْحُطَامِ يَخْتَصِمَانِ

وَتَرَانَا إِذَا اجْتَمَعْنَا فَإِمَّا ... لِعَزَاءٍ فِي مَأْتَمٍ أَوْ خُوَانِ

وكَثِيـــــرٍ إِذَا دُعُـــــوا لِخُـــــوانٍ لا يُجِيبُـــوا* فِـــي أَكْثَـــرِ الأحْيَـــانِ
وَإِذَا مَـــا أُصِـــيبَ شَـــخْصٌ فَقِيـــرٌ فَهُـــوَ لا شَـــكَّ مِـــنْ صِـــغَارَ الـــشَّانِ
لَـــنْ يُوَاسَـــى وَمَـــا لَـــهُ قَـــطُّ وَزْنٌ وســـيطوى فـــي عـــالم النـــسيان
أَتُـــرَى مَاتَـــتْ الـــضَّمَائِرُ مِنَّـــا مَـــاتَ حُـــبُّ الإِنْـــسَانِ لِلإِنْـــسَانِ
إِنَّ نَفْـــسًا لِلْمَـــالِ تَـــسْعَى وَتَحْيَـــا لَهِـــيَ نَفْـــسٌ تَعِـــيشُ فِـــي أَحْـــزَانِ
وَإِذَا حَلَّـــتْ الْمَطَـــامِعُ قَلْبًـــا بُـــدِّلَ الْحُـــبُّ فِيـــهِ بِالـــشَّنَآنِ
كُـــلُّ عَـــيْشٍ مِـــنْ غَيْـــرِ حُـــبٍّ خَـــوَاءٌ وَسَـــرَابٌ يَلُـــوحُ فِـــي قِيعَـــانِ
لَـــوْ حَفِظْنَـــا لِلْجِيـــلِ مِنَّـــا صَـــفَانَا* كَـــانَ أَغْلَـــى مِـــنْ شَـــامِخَاتِ الْمَبَـــانِي[1]

تتردد هذه المعاني في دواوين الشعر ولكل من الشعراء طريقته الخاصة في طرحها وعرضها وللمتلقي طريقته في تقبلها والتفاعل معها حسب المعطيات المقدمة المتدثرة بالإبداع الفني الذي يمايز بين الشعراء " ونرى هنا أن العملية الأدبية ، هي عملية إبداعية – ، أي عملية خلق ، وإن المبدع – أو الخالق – هو المؤلف ، ولذا يظل العمل الأدبي منتمياً لذاته " [2]

الكبر والعجب يسلبان من المرء أعظم الفضائل، ويكسبانه الرذائل ، ذلك لأن المتكبر لايمكن أن يسمع لنصح ناصح ولا يقبل التأديب والتوجيه لما وقر في نفسه من الكبر والتعالي ، فالمتكبر يرفع نفسه عن رتبة المتعلمين.

والمعجب بنفسه يبقى في محله ولا يزداد من الخير حتى وإن كان من أمور الدنيا لأنه يظن أنه قد بلغ المنزلة وأنه أحسن من غيره فيقعد به ذلك عن التقدم والسير إلى الأفضل.

ولعل الكبر والعجب متلازمان ، فالمتكبر معجب بنفسه ،إن من أعظم ما يسوق المرء إلى الكبر علو اليد ، ونفوذ الأمر ، ومن أسباب ما يحصل لبعض البشر من الكبر كثرة المديح من المقربين له ولذلك نهى عن ذلك النبي صلى الله عليه وسلم

([1]) شعر محمد محسن مشاري / ص ١١٩ ،١٢٠.

([2]) فاضل ثامر / مرجع سابق / ص ١٣٢

وإن من مساوئ العجب أن الإنسان لا يتقدم لا في أمر الدنيا ولا في أمر الآخرة وهي الأهم.

لذا نجده في نص آخر يترحم على الرجال الحقيقيين الذين تطيب بهم الأيام وتأنس إليهم الأنفس وكأنهم عدموا أو بادوا ، يقول :

رَحِمَ اللهُ يَا صَدِيقِي رِجَالا طَابَتْ النَّفْسُ مِنْهُمُ والسَّرِيرَهْ
لَيْسَ لِلْمَالِ وَالْمَنَاصِبِ عَاشُوا لَيْسَ مِنْهُمْ مَنْ بَاعَ يَوْمًا ضَمِيرَهْ
أَوْ غَدَا يَنْصُبَ الشِّرَاكَ لِغَدْرٍ بِضَعِيفٍ، فَصَارَ لِلْغَدْرِ طِيرَهْ
لَمْ يَعِيشُوا عَلَى جُهُودِ سِوَاهُمْ بِأَسَالِيبَ خَافِيَاتٍ خَطِيرَهْ
مِثْلَمَا يَفْعَلُ الضِّعَافُ نُفُوسًا يَزْعُمُونَ التُّقَى، وَيَأْتُونَ غَيْرَهْ
أَلْسُنٌ حُلْوَةَ الْمَقَالِ خِدَاعًا وَعُيُونٌ تَرْتَابَ فِيهَا مُثِيرَه
(حِينَ يَرْنُو إِلَيكَ يَبْدُو خَجُولا وَهُوَ كَالذِّئْبِ إِنْ رَنَا لِلْعَقِيرَهْ
بُعُيُونٍ تَمَثَّلَ الْمَكْرُ فِيهَا وَانْطَوى الشَّرُ فِي الْجُفُونِ الْكَسِيرَهْ)*
وَرَعٌ فِي الْوُجُوهِ وَالْحِقْدُ أَضْحَى مُوقِدًا فِي الْقُلُوبِ مِنْهَا سَعِيرَهْ
حِينَ يَبْكِي فَلِلْمَطَامِعِ يَبْكِي بِدُمُوعٍ كَالْوَبْلِ تَهْمِي غَزِيرَهْ
لَيْسَ يَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ لَكِنْ فَاتَهُ الصَّيْدَ لَمْ يَقَعْ فِي الْحَفِيرَهْ
أَغْنِيَاءٌ مِنْ الدَّرَاهِمِ لَكِنْ فُقَرَاءُ النُّفُوسِ عُمْيُ الْبَصِيرَهْ
إِنَّمَا الصَّفْوَةُ الأَفَاضِلُ كَانُوا أَنْجُمًا فِي السَّمَاءِ تَهْدِي مُنِيرَهْ
لَمْ تُدَنَّسْ لَهَا الْمَطَامِعُ عَرْضًا فَهِيَ طُهْرٌ، وبِالْمَعَالِي جَدِيرَهْ
أَغْنِيَاءُ النُّفُوسِ تَبْدُو عَلَيْهِمْ عِزَّةُ الدِّينِ، وَالْجُيُوبُ فَقِيرَهْ
خُلُقٌ فَاضِلٌ وَطَبْعٌ كَرِيمٌ وَنُفُوسٌ فِيهَا عَلَى الْحَقِّ غِيرَهْ
كُلُّ سَعْيٍ وَكُلُّ جُهْدٍ أَتَوْهُ هُوَ للهِ وَهُوَ نِعْمَ الذَّخِيرَهْ
فَإِذَا عَاشَ غَيْرُهُمْ فِي هَنَاءٍ وَسَلامٍ فِي ظِلِّ نُعْمَى وَفِيرَهْ

سَـــعَدُوا فِـــي حَيَـــاتِهِمْ واسْـــتَطَابُوا شَـــظَفَ الْعَـــيْشِ شُـــرْبَهُ وَقَطِيـــرَهْ
طُهِـــرَّتْ مِـــنْهُمُ النُّفُـــوسُ وَطَابَـــتْ تِلْـــكَ حَقًّـــا هِـــيَ النُّفُـــوسُ الْكَبِيـــرَهْ
(وَإِذَا كَانَـــتْ النّفُـــوسُ كِبَـــارًا) تَتَـــسَامَى عَـــنِ الخِـــلالِ الْحَقِيـــرَهْ
إِنَّ نَفْـــسًا تَرْضَـــى هَـــوَانَ سِـــوَاهَا هِيَ نَفْـــسٌ فِيهَـــا الْهَـــوانُ حَقِيـــرَهْ[1]

في هذه القصيدة تصوير عظيم لخلجات قلوب الفاسدين في المجتمع فقد حشد فيها توصيف رائعٌ للمتلونين والمنافقين " وقد تعددت وسائل التقديم الحسي للمعنى وعناصرها واتخذت علائق مختلفة لا يمكن الإلمام بها ضمن تصور كلي ما لم نقف عند الأنواع والعناصر البلاغية التي تمثل جانباً مهماً من جوانب التشكيل الفني للصورة الشعرية وتحديد طبيعتها التي حاولت النظرة النقدية المعاصرة الكشف عن قيمتها الفنية ودورها التصويري بين الغاية والوسيلة بوصفها السبيل الذي يجمع به الشاعر بين التعبير عن انفعالاته ومشاعره وإدراك الشبه الحقيقي لها في مظاهر العالم الخارجي ، وتشكيل علائق التماثل المتفردة في صور شعرية"[2].

ومن هذه الآفات والعلل تفشي المجاملة في المجتمع إلى حد جعل الصراحة ممقوتة، وذلك ما تناوله بالعرض والتحليل في إحدى قصائده، فهو يتألم من أولئك الذين يقولون غير ما يفعلون ويفعلون غير ما يقولون، وينفر من المتلونين الذين لا يثبتون على مودة إلا بقدر ما يخدم مصالحهم ولذا فإن واحدهم يتلون تلون الحرباء فيضحك إن رأى منفعة ويعبس ويكشر إن فقد أملاً فيها

ويمضي يصور حال المخادعين بالمودة وحال المخدوع الذي أقبل عليه المنافقون يمدحون ويثنون ويفدونه بالنفس والنفيس فلما مال عليه الزمان وبات من ماله صفر اليدين نفروا منه فلم ير أحدًا حين احتاج إلى العود.

أَسَيْتُ لِذي الْوَجْهَيْنِ يَرْضَـى لِنَفْـسِهِ* مَوَاقِـــفَ يَأْبَاهَـــا الْكَـــرِيمُ وَيَـــأْنَفُ
إِذَا كُنْتَ مِمَّنْ يَقْـصِدُ النّـاسُ شَخْـصَهُ لِحَاجَاتِهِمْ، وَالْمَـرْءُ مَـا عَـاشَ يَعْـرِفُ

([1]) شعر محمد محسن مشاري / ص ٧٧ ، ٧٨ .

([2]) بشرى موسى صالح/ الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث / المركز الثقافي العربي / بيروت / ط ١ / ص ٩١ .

تَــرَاهُ إِذَا مَــا جَــاءَ يَطْلُــبُ حَاجَــةً إِلَيــــكَ وَفِيـــــهِ رِقَّـــــةٌ وَتَلَطُّـــــفِ
وَيُعْطِيــكَ مَعْــسُولَ الْكَــلامِ تَمَلُّقًــا وَيَمْنَحُــكَ التَّقْــدِيرَ زُورًا وَيَحْلِــفُ
بِأَنَّــكَ فَــرْدٌ فِــي الْمَكَــارِمِ وَاحِــدٌ وَيَــشْهَدُ أَنَّ النَّــاسَ دُونَــكَ تُوصَــفُ
وَيَهْــدِيكَ إِنْ لاقَــاكَ أَلْــفَ تَحِيَّــةٍ وَلَكِنَّــهُ فِــي وَاقِــعِ الأَمْــرِ يَزْلِــفُ
وَيَــضْحَكُ لِلْقَــولِ الــسَّخِيفِ تَقُولُــهُ وَيُبْــدِي لَــكَ التَّــصْدِيقَ فِيمَــا تُخَــرِّفُ
وَإِنْ حَــلَّ مَكْــرُوهٌ بِــسَاحِكَ مَــرَّةً أَتَــاكَ وَمِنْــهُ الْعَــينُ بِالــدَّمْعِ تَــذْرِفُ
كَمَــا يَفْعَــلُ التِّمْــسَاحُ يــذْرِفُ دَمْعَــهُ غَزِيــرًا وَفِــي أَنْيَابِــهِ الــصَّيْدُ يُقْــصَفُ
وَلَكِنْ بِنَفْسِ الْوَقْــتِ* يَــذْهَبُ مُــسْرِعًا إِلَــى الْغَيْــرِ يَــرْوِي بِالأَكَاذِيــبِ يَرْجِــفُ
يَــرُوحُ إِلَــى عَمْــرٍو وَيَغْــدُو لِعَــامِرٍ بِــسِلْعَتِهِ يُغْــرِي بِهَــا وَيُــصَرِّفُ
كَــذَا دَأْبُــهُ يَــسْعَى بِكُــلِّ دَسِيــسَةٍ يُمَــزِّقُ فِــي هَــذَا، وَفِــي ذَاكَ يَقْــذِفُ
يَقُولُ بِمَا يَدْرِي وَمَا لَــيْسَ قَــدْ دَرَى* يَزِيــدُ عَلَــى مَــا شَــاءَ مِنْهَــا وَيَحْــذِفُ
خَؤُونٌ مَــرِيضُ الْقَلْــبِ دَلَّــتْ فِعَالُــهُ عَلَــى أَنَّــهُ صِــفْرَ المُــرُوءَةِ أَجْــوَفُ
تَقَمَّــصَ أَثْــوَابَ النَّزَاهَــةِ وَالتُّقَــى رِيَــاءً وَمِنْــهُ الــصِّلُّ بِالنَّــاسِ أَعْطَــفُ
يُغَطِّي بِهَا سُــوءَ الْفِعَــالِ فَهَــلْ تُــرَى يُغَطَّي ضِيَاءَ الــشَّمْسَ إِنْ شَــعَّ شَرْشَــفُ
فَــإِنْ أَدْبَــرتْ أَيَــامُ سَــعْدِكَ وَاخْتَفَــتْ وَعَــضَّكَ نَــابُ الــدَّهْرِ فَــالْجَوُّ مُعْــصِفُ
تَــوَلَّى وَلَــمْ يَخْجَــلْ بِوَجْــهٍ كَأَنَّــهُ وَقَدْ جَفَّ مِــنْ مَــاءِ الْكَرَامَــةِ مِــشْهَفُ[1]
فَمَا عَــادَ تَلْقَــى مِنْــهُ بَــسْمَةَ خُدْعَــةٍ وَعَنْــكَ إِذَا لاقَــاكَ بِالْوَجْــهِ يَعْــزِفُ
تَنَكَّــرَ لِلْمَعْــرُوفِ وَاخْتَــارَ مَوْقِفًــا عَلَى الْحُرِّ مِنْــهُ ضَــرْبَةُ الــسَّيْفِ أَلْطَــفُ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ قَــدْ جَــاءَ نَحْــوَكَ قَاصِــدًا بِيَــومٍ مِــنَ الأَيَّــامِ أَوْ رُحْــتَ تُــسْعِفُ
جَزَى اللهُ صَرْفَ الــدَّهْرِ خَيْــرًا لأَنَّــهُ يُبَــيِّنُ أَخْــلاقَ الرِّجَــالِ وَيَكْــشِفُ[1]

([1]) شعر محمد محسن مشاري / ص : ٩٥ ، ٩٦

يعود الشاعر مرة بعد مرة ليضع أصبعه على أدواء مجتمعه يبرزها ويظهرها فالغرور والعجب مرض نفسي ينخدع به الإنسان فيقع فريسة التوهم والتصورات غير الواقعية، فلا يعود مدركاً لحقائق الحياة، والغرور والعجب ناشئان من الجهل وعدم إدراك الواقعيات وحقائق الحياة ومسائل عالم الوجود ولذلك كلما زادت القدرة الفكرية والعقلية لدى الإنسان واتسعت معلوماته وتجاربه وأصبح واعياً وعالماً، قلّت عنده نسبة الغرور والعجب والأنانية.

إن أهم ما يدعو إلى الغرور هو الجهل وعدم الوعي وهو كامن في وجود الإنسان ويخلف آثاراً مدمّرة. إن المغرور– خاصةً في مرحلة الشباب والمراهقة– يُبتلى بنوع من السذاجة والأنانية المفرطة، ويذهب به الخيال إلى درجاته القصوى،فيتصور نفسه عظيماً وعالماً وفاهماً وانه أعقل من الجميع، ويرى غيره متخلفاً وجاهلاً ولا يعدل شيئاً، وبذلك يحرم نفسه من الاستفادة من تجارب غيره، ولا يسعى إلى رفع نواقصه.ومع الالتفات إلى هذه المخاطر والأضرار الأخلاقية الناشئة عن الغرور والعجب، تتجلّى على طرح تلك الأدواء.

إن المغرورين يقعون في أسر التصورات الخاطئة ويحبسون أنفسهم في بيوت عنكبوتية من الأوهام حتى ينكرون كلَّ ما سواهم.وفي ظل هذهِ الظروف يرى المغرور نفسه ممتازاً عن الآخرين، مما يؤدي بالآخرين إلى تجنبه والاستياء منه، وبذلك يبقى وحيداً فريداً، ومن ثم تجرّه هذه الوحدة إلى الأمراض النفسية والعقد الروحية

إن منشأ الغرور وإن كان هو الجهل وانعدام الوعي، إلا أن التمادي في الغرور وحب الذات يؤدي بالمغرور سواء أكان شاباً متعلماً أم في أي مستوىً آخر إلى الوقوع في شباك التكبر والنخوة والاستغناء عن الآخرين، فيمتنع حتى من الاستفهام والاستفسار من الآخرين برغم جهله واحتياجاته العملية في الحياة، فيبقى على ما هو عليه من الجهل علينا إن لا نغتر بما تعلمتاه من دروس ومصطلحات أو حصلنا عليه من معلومات وتجارب قليلة وإنما علينا أن نذعن بأننا لا نزال نجهل الكثير من جزئيات مسائل الحياة وكلياتها،ولا يزال أمامنا طريق طويل وشاق لبلوغ كنهها.

الشخص المغرور حينما يرى نفسه كبيراً وفاهماً وخالياً من العيوب والنواقص، فإنه نادراً ما يتقبل النقد،وقلّما يسعى إلى محاسبة نفسه والتعرف على عيوبها والحيلولة دون وقوعها في الأخطاء، وبذلك يظل قابعاً في أودية الانحراف والانحطاط والجمود

والتخلف للتهرب من المسؤولية، ولكي يخفوا نواقصهم الأخلاقية ويتهربون من السعي وراء الأعمال الإيجابية فإنّهم يلقون باللائمة على غيرهم ويتهمون الآخرين بعدم الوفاء ويتهمون حتى أولياء أمورهم بالعداوة وعدم الإخلاص لهم! ومثل هذه التصورات في غاية الخطورة، وان الاستمرار عليها لا يحل لهم أية مشكلة، بل ستضاعف من مشاكلهم على مرّ الأيام.

وفي الوقت ذاته يعاني انفصالاً بين ما يقول وما يفعل.

ومن هنا تتجلّى ضرورة تحطيم الغرور وبناء النفس من خلال العثور على العيوب والنواقص، والاستفادة من النقاط الإيجابية لدى الآخرين.

مَا بَال دَمْعَكَ يَجْرِي فِي ضُحَى الْعِيدِ ... وَفِي عُيُونِكِ هَمٌّ غَيْرُ مَعْهُودِ

وَقَدْ عَرَفْتُكَ طَلْقَ الوَجْهِ مُبْتَسِمًا ... تَهْتَزُّ بِشْرًا لِعَزْفِ النَّايِ والْعُودِ

وإِنْ صِغَارُ بَنَاتِ الحَيِّ مِنْ فَرَحٍ ... أَصْوَاتُهُنَّ تَعَالَتْ بِالأَنَاشِيدِ

تَكَادُ تَرْقُصُ مِنْ فَرْطِ السُّرُورِ عَلَى ... أَنْغَامِهِنَّ وتَرْدِيدِ الأغَارِيدِ

فَمَا دَهَاكَ أَخِي حَتَى غَدَوْتَ بِهِ ... أَسِيرَ هَمٍّ تُعَانِيهِ وتَنْكِيدِ

وَأَنْتَ فِي خَيْرِ حَالٍ لا عَنَاءَ بِهِ ... تَعِيشُ مَا بَيْنَ مَنْضُودٍ وَمَمْدُودِ

أَجَابَنِي مَا بُكَائِي مِنْ هَوَى رَشَأٍ ... أَدْمَى فُؤَادِي فَمَا شَأْنِي هَوَى الْغِيدِ

وَلا سَهِرتُ لَيَالِ الْعُمْرِ مِنْ أَلَمٍ ... وَلا أَلانَتْ عَوَادِي دَهْرِنَا عُودِي

وَلا بَكَيْتُ لِجَاهٍ عَزَّ مَطْلَبُهُ ... وَلا لِمَالٍ فَقَدْنَاهُ وَمَوْلُودِ

لَكِنْ بُكَائِي لِمَا يَجْرِي بِمُجْتَمَعِي ... وَكَانَ مَوْضِعَ إِنْشَادِي وَتَغْرِيدِي

لَقَدْ وَرِثْنَا خِصَالَ الْمَجْدِ مِنْ شِيَمٍ ... وَوَصْلِ قُرْبَى، وَمِنْ صِدْقِ الْمَوَاعِيدِ

وَمِنْ قِرَى الضَّيْفِ مِنْ حُسْنِ الْجِوَارِ ... شَجَاعَةٍ فِي لِقَا الأَعْدَا وَمِنْ جُودِ

وَعَوْنِ ذِي حَاجَةٍ ضَاقَتْ مَعِيشَتَهُ ... وَحِفْظِ عَهْدٍ وَمَنْ عَطْفٍ وَمِنْ ذَوْدِ

عَنِ الْحِمَى، وَالْحِمَى حَقٌّ صِيَانَتُهُ ... عَنْ كُلَّ مَوْقِفِ سُوءٍ غَيْرِ مَحْمُودِ

وَنَجْدَةٍ تَسْلُبُ الْبَاغِي إِرَادَتَهُ ... حَتَى يَعُودَ بِحَالٍ غَيْرِ مَحْسُودِ

تلْـــكَ الْمَبَـــادِئُ لَـــمْ تُنْقَـــلْ لأُمَّتِنَـــا مِنْ مَوْطِنِ الْمَنْشِ أَوْ مُوسْـــكُو وَهُوْلْيُـــودِ
وَخَلَّفَتَهَـــا لَنَـــا الأَجْـــدَادُ إِنَّهُـــمُ نِعْـــمَ الْجُـــدُودِ الْمَيَـــامِينِ الـــصَنَادِيد
فَهَـــلْ حَفِظْنَـــا وَأَوْلَيْنَـــا عِنَايَتَنَـــا لِمَـــا وَرِثْنَـــاه عَـــنْ أَبَائِنَـــا الـــصِّيدِ
كَـــلا، فَإِنَّـــا أَضَـــعْنَا فِـــي حَـــضَارَتِنَا يَـــا لَلأَسَـــى مَـــا وَرِثْنَـــا مِـــنْ تَقَالِيـــدِ
فَقَدْ تَغَيَّـــرَ بَعْـــضُ النَّـــاسِ عَـــنْ مُثُـــلٍ عَرِيقَـــةٍ قَـــدْ سَـــمَتْ عَـــنْ كُـــلِّ تَقْلِيـــدِ
إِلَـــى سُـــلُوكٍ بَعِيـــدٍ عَـــنْ طَبِيعَتِنَـــا وَيَخْجَـــلُ الحُـــرُّ مِنْـــهُ إِنْ بِـــهِ نُـــودِي
عَنْ الْخُـــرُوجِ إِلَـــى الأَسْـــوَاقِ لابِـــسَةً أَبْهَى الثِّيَـــابِ عَـــوَارِي الْوَجْـــهِ وَالْجِيـــدِ
لأَنَّ هَـــذَا سُـــلُوكٌ لا يَلِيـــقُ بِنَـــا كَأَمَّـــــةٍ ذَاتَ إِيْمَـــــانٍ وَتَوْحِيـــــدِ
قَـــالُوا لَنَـــا إِنَّ هَـــذَا مِـــنْ تَخَلُّفِكُـــمْ فَمَـــا تَزَالُـــونَ فِـــي عَـــصْرِ الْفَرَاهِيـــدِي
وَكَيْـــفَ يُحْـــرَمُ مِـــنْ حَـــقٍّ التَّحَـــرُرِ لا هَـــذَا هُـــوَ الْقَيْـــدُ أَو أَقْـــسَى مِـــنَ الْقَيْـــدِ
وَإِنْ دَعَوْنَـــاهُمُ لِلْبَـــذْلِ فِـــي حَـــدَبٍ عَلَى الْمَسَاكِينِ مَـــا مَـــدُّوا لَهَـــا الأَيْـــدِي
وَلَـــوْ بِـــبَعْضِ نُقُـــودٍ يَـــسْتَعِينُ بِهَـــا أَبُـــو عِيَـــالٍ عَلَـــى الإِنْفَـــاقِ فِـــي الْعِيـــدِ
عَلَـــى صِـــغَارٍ كَـــأَفْرَاخِ القَطَـــا وَلَهُـــمْ أُمٌ طَوَاهَـــا الْعَنَـــا طَـــيَّ الـــسَّجَاجِيدِ
رَاحَـــتْ تَنُـــوحُ بِيَـــوْمِ العِيـــدِ بَاكِيَـــةً عَلَى الـــصِّغَارِ وَهُـــمْ فِـــي حَالَـــةٍ تُـــودِي
بِهِمْ إِلى الْمَـــوتِ مِمَّـــا يَـــصْطَلُونَ بِـــهِ مِـــنْ نَـــارِ فَقْـــرٍ كَنِيـــرَانِ الْمَوَاقِيـــدِ
بَيْنَا تَرَى الْغَيْرَ فِي نُعْمَى يَعِـيشُ وَهُـمْ أَدْرَى بِـــذَاكَ وَمَـــا رَقُّـــوا لِمَوْلُـــودِ
الْبَذْلُ فِـــي طُـــرقِ الخَيْـــرَاتِ مَـــضْيَعَةٌ لِلْمَـــالِ عِنْـــدَهُمُ فِـــي غَيْـــرِ مَـــرْدُودِ
وَلَـــوْ طَلَبْـــتَ رِيَـــالا وَاحِـــدًا لأَبَـــوْا وَفِي الْهَوَى كَانْسِكَابِ الْغَيْثِ فِـــي الْجُـــودِ
وَإِنْ نَقُـــولُ* لَهُـــمْ قَـــضُّوا فَـــرَاغَكُمُ فِـــي جَـــوِّ أَبْهَـــا وَفِـــي شُـــبْرَا الْعَنَاقِيـــدِ
قَالُوا لَنَـــا مَـــا لأَبْهَـــا هَـــلْ تُـــشَبِهَهَا بِجَـــوِّ بَنْكُـــوكَ أَوْ أَجْـــوَاءَ مَدْرِيـــدِ؟!
وَمَـــا لَنَـــا وَلِـــشُبْرَا وَالْكُـــرُومُ بِهَـــا فَفِـــي فِيَنَّـــا الْمُنَـــى مِـــنْ غَيْـــرِ تَعَقِيـــدِ

وَالْحِقْدُ أَعْمَى قُلُوبَ الْبَعْضِ فَارْتَكَبَتْ سُوءَ الْفِعَالِ لأغْرَاضٍ لَهُمْ سُودِ
تَرَى الْوُجُوهَ غِضَابًا إِنْ رَأَتْ نِعَمًا بِآخَرِينَ وَإِنْ زَالَتْ فَفِي عِيدِ
أَمَّا صِلاتُ ذَوِي الْقُرْبَى فَحَلَّ بِهَا مَا حَلَّ بِالْجَارِ لَمْ يُوصَلْ بِتَأْكِيدِ
فَقَدْ نَرَى الْبَعْضَ يَطْوِي الْبُعْدَ مُجْتَهِدًا مِنْ أَجْلِ سَعْدٍ وَيَرْجُو وَصْلَ مَسْعُودِ
وَجَارُهُ بُعْدَ أَمْتَارٍ لِمَنْزِلِهِ فَلا يَصِلْهُ* وَلا هَذَا بِمَقْصُودِ
لأنَ جَارَهُمُ لَيْسَتْ مَكَانَتُهُ بَيْنَ الْكِبَارَ وَلا فِيهِمْ بِمَعْدُودِ
وَالْوَعْدُ يُكْذَبُ إِنْ أَعْطَاكَ صَاحِبُهُ إلا الْقَلِيلَ الَّذِي يُوفى لِمَوْعُودِ
أَبَعْدَ هَذَا تَجِئُ الْيَومَ تَسْأَلُنِي: مَابَالَ دَمْعُكَ يَجْرِي فِيضُحَى الْعِيدِ؟![1]

بكاء الشباب، والشكوى من تقدم السن، والعجز، والشيب :

المرء في دنياه يعيش بين ضعفين ، ضعف في مبدأ طفولته ، ووهن عند نهايته وشيخوخته، و حين وصول الإنسان إلى مرحلة الشيخوخة تبدأ قواه الجسدية في الضعف؛ فيصاحبه العديد من التغيرات البيولوجية (الحيوية) والنفسية فنجد مثلا تدهور الوظائف العقلية مثل ضعف الذاكرة و النسيان و مظاهر خرف الشيخوخة كتكرار الحديث ذاته عدة مرات و نسيان الأبناء و الأهل و البطء في التفكير و تباطؤ القدرة على الابتكار و ضعف القدرة على التعليم و تتأثر عملية الإدراك و التذكر بنشاط خلايا المخ التي تطرأ عليها تغيرات تؤثر على نشاطها و فعالياتها ، و مظاهر الضعف الجسمي و الأمراض المزمنة و الإحالة للتقاعد و افتقاد شريك الحياة و ابتعاد الأبناء عن الأسرة كل ذلك يشعره بالغربة و الخوف و الحاجة للسند

يقول الله تعالى في كتابه العظيم: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ }.[2]

([1]) المصدر السابق.

([2]) سورة الروم، آية ٥٤.

وهذا الضعف والنقص المحاط بالإنسان عاشه شاعرنا المشاري وأدركه بنفسه في نفسه وفي غيره من معاشريه وهو يدرك أن الشيب من جملة آيات الله تعالى التي رسمها في خلقه [{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ}.[1]

وهو يعي أنه نهاية عمر الإنسان ، ومنتهى حياته " ولذلك بدأ العالم الواقعي موضوعاً ومصدراً يمتاح منه الأديب الواقعي مادته ، ويعبر عنه تعبيراً موضوعياً دقيقاً "[2]

يذكر الشاعر نفسه ويخاطبها يا من علاك الشيب إن الفسحة في العمر نعمة كبيرة يمن الله بها على عبادة فاستثمر هذه النعمة فيما يرضي ربك ، ويعلي منزلتك ، واستدرك ما فات ، بالاستعداد لما هو آت . لتكن شعرات شيبك تؤزك للإنابة إلى ربك أزاً ، وتحرك مشاعر الندم في نفسك ، على تقصيرك وتضييع عمرك فيما لا ينفع . فليس فيما بقي من العمر أطول مما فات ، فبادري يا نفسي بالتوبة والعمل بقية أيامك قبل أن تبادرك المنون ، واجعلي مسك ختام العمر طاعة وتقوى ، صلاة وصياما ، وصدقة واستغفارا .سلي الله حسن الخاتمة، فإنما الأعمال بالخواتيم ومن عاش على شيء مات عليه

قَدْ كَسَا الشَّيْبُ مِنْكَ صَدْغًا وَفَوْدَا وَهُوَ لِلنَّفْسِ مُنْذِرٌ مِنْ هَوَاهَا

وَتَوَلَّى قِطَارُ عُمْرِكِ يَجْرِي بِسِنِينِ الشَّبَابِ مِنْكَ طَوَاهَا

ذَبَلَتْ زَهْرَةُ الشَّبَابِ وَكَانَتْ غَضَّةً يُبْهِجُ النُّفُوسَ شَذَاهَا

كُنْتَ بِالأَمْسِ فِي شَبَابِكَ تَزْهُو نَضِرَ الْوَجْهِ لاهِيًا تَتَبَاهَى

لا تُبَالِي بِمَا حَوَالَيْكَ يَجْرِي تَتَعَاطَى مِنَ الْمُنَى أَحْلاهَا

وَعُيُونُ الْحِسَانِ تُرْسِلُ لَحْظًا مِلْؤُهُ الْخَوْفُ مِنْ عَذُولٍ يَرَاهَا

تَتَحَاشَى مَلامَهَا وَهِيَ تُرْنُو بِعُيُونٍ إِلَيْكَ تُبْدِي خَنَاهَا*

كُنْتَ بِالأَمْسِ لَكِنْ الأَمْسَ وَلَّى بِأَمَانِيكَ تَارِكًا ذِكْرَاهَا

([1]) سورة فصلت ، آية ٥٣.

([2]) بشرى موسى صالح/ مرجع سابق / ص ٥٠

وَأَتَـــاكَ الْمَـــشِيبُ يَحْمِـــلُ فِيـــهِ مُـــرَّ طَعْـــمِ الْحَيَـــاةِ جَـــمٌّ عَنَاهَـــا
رَاحَ عَـــصْرُ الـــشَّبَابِ أَصْـــبَحَ ذِكْـــرَى كَالأَسَـــاطِيرِ عِنْـــدَ رَاوٍ رَوَاهَـــا
لَـــمْ يَعُـــدْ فِيـــكَ غَيْـــرَ أَطْيَـــافِ مَـــاضٍ أَتْـــتَ تَحْيَـــا عَلَـــى جَمِيـــلِ رَوَاهَـــا
أَهِيَـــامٌ مِـــنْ بَعْـــدِ سِـــتِّينَ عَامًـــا وَحَنِـــينٌ لِرَامَـــةٍ وَظِبَاهَـــا
وَبُكَـــاءٌ عَلَـــى الـــدِّيَارِ وَقَلْـــبٌ فِي الْهَـوَى طَـالَ أَسْـرُهُ مَـا تَنَـاهَى
مَا دَهَـى الـشَّيْخَ عَلَّـهُ قَـدْ تَـصَابَى؟! أَمْ هُوَ اخْتَـارَ عَـنْ حِجَـاهُ سِـفَاهَا[1]
لَـــمْ يَعُـــدْ فِيـــكَ مَطْمَـــعٌ لِلْغَـــوَانِي أَوْ تَـــرَى فِيـــكَ يَـــا عَزِيـــزِي فَتَاهَـــا
بَعْدَ مَـا شِـبْتَ وَالْقُـوَى مِنْـكَ خَـارَتْ وَتَجَـاوَزْتَ فِـي الْمَـدَى مُـسْتَوَاهَا
لَـــيْسَ بَعْـــدَ الْمَـــشِيبِ إِلا مَتَـــابٌ نَـــسْأَلُ اللهَ لِلنُّفُـــوسِ هُـــدَاهَا
أَثْقَلَتْنَـــا الـــذُّنُوبُ وَالْـــبَعْضُ مِنَّـــا لَـــمْ يَـــزَلْ بَعْـــدُ ضَـــارِبًا فِـــي دُجَاهَـــا
وَحَمَلْنَـــا عَلَـــى الْكَوَاهِـــلِ مَـــا لَـــوْ حَمَلَتْـــهُ رَوَاسِـــيًا أَعْيَاهَـــا
وَاللَّيَـــالِي مِـــنَ الزَّمَـــانِ حَبَـــالَى يَعْلَـــمُ اللهُ مَـــا حَوَتْـــهُ حَـــشَاهَا
يَـــا لِهَـــوْلِ الْمُـــصَابِ رُحْمَـــاكَ رَبِّـــي بِمُـــسِنٍّ يَبْكِـــي الظِّبَـــا فِـــي خِبَاهَـــا[2]

يقف الشاعر ملياً مع ضعف قد حلّ به ، مع الشيب والمشيب، وهمه وهمومه ، وحلوه ومُرِّه، وعبره وعَبَراته. فحياة الكهولة والمشيب محطة لابد منها لمن أمده الله في عمره ، وأنسأ له في أثره ، وهي حياة تبعث على الإشفاق والرأفة والرحمة .هي مرحلة تحمل في طياتها تغيراً كثيراً في الخلقة والطبع والطبائع . فبينما الإنسان يعيش شبابه في أوج قوته، وعنفوان فتوته ، ويملؤها بكل نشاط وحيوية ، حتى إذا ما تعاقبت به السنون وما أسرع تعاقبها تغيرت أحواله ، ورُحمت حاله ، فابيض شعره ، وتجعد وجهه ، وأحدودب ظهره ، وكلت حواسه وتقاربت خطاه ، وضعف هواه ، ذَبل عزُّه، وبدأ ذله ، وضعفت ذاكرته ، وتغيرت عافيته .

(1) شعر محمد محسن مشاري / ص : " ١٢١ ــ ١٢٢.
(2) شعر محمد محسن مشاري / ص : ١٢٢.

ولأن الشيب ناقوس الضعف ، ونذير الفناء والرحيل ، هو المرارة بعد الحلاوة، والعجز بعد القوة، وهو العلة التي لا تبرأ ، والضيف الذي لا يرحل. فهو لا يفرق بين غني وفقير وبين صحيح وسقيم ؛ فإن شاعرنا المشاري يُجري محاورة مع رجل موسر أدركه الشيب بعد طيب عيش في عهد الشباب؛ فهاله وهلع منه فبادر بالشكوى إلى شاعرنا الذي استغرب حزنه وهمه :

قَالَ لِي صَاحِبِي أَلا مِنْ وَسِيلَهْ ... مِنْ عَنَاءٍ حَمَلْتُ مِنْهُ ثَقِيلَهْ

فَتَعَجَّبْتُ كَيْفَ يَشْكُو عَنَاءً؟ ... وَهُوَ رَبُّ الثَّرَاءِ بَيْنَ الْقَبِيلَهْ

صَاحِبُ الْجَاهِ والأوامِرِ فِيهَا ... وَحَوَالَيْهِ أُسْرَةٌ وَحَلِيلَهْ*

تَفْتَدِيهِ وَفِتْيَةٌ إِنْ دَعَاهَا ... فِي ثَوانٍ تَأْتِيهِ حَسْرَى ذَلِيلَهْ

لَوْ شَكَا لِي مِمَّا يُعَانِي فَقِيرٌ ... ذُو عِيَالٍ صَدَّقْتُ فِيمَا يَقُولَهْ

لِيَقِينِي بِأَنَّ فِي الْفَقْرِ ذُلٌّ ... وَعَنَاءٌ وَالشُّوكُ غَطَّى سَبِيلَهْ

إِنَّمَا يَشْتَكِي الْعَنَا ذُو ثَرَاءٍ ... ذَاكَ أَمْرٌ فِي النَّفْسِ مِنْهُ دَخِيلَهْ

فَسَأَلْتُ الصَّدِيقَ مِمَّا يُعَانِي ... رُبَّمَا أَسْتَطِيعُ تُخْفِيفَ وَيْلَهْ

فَأَجَابَ الصَّدِيقُ مَا كُنْتُ أَشْكُو ... مِنْ هُمُومِ الْحَيَاةِ فَهِيَ قَلِيلَهْ

إِنَّمَا أَشْتَكِي وَلا زِلْتَ أَشْكُو ... مِنْ غَزَاةِ الْمَشِيبِ فِي كُلِّ لَيْلَهْ

أَلَمَ الظَّهْرِ وَالْمَفَاصِلِ مِنِّي ... لا تَدَعْنِي فَرَاحَتِي مُسْتَحِيلَهْ

وَلَهِيبَ السَّاقَينِ يَشْوِي لَظَاهُ ... كَاشْتِعَالِ الْوَقُودِ بَيْنَ الْفَتِيلَهْ

يَا صَدِيقِي وَرُكْبَتَايَ تُعَانِي ... مَا تُعَانِيهِ فِي لَيَالٍ طَوِيلَهْ

أَلَمٌ فِي الْعِظَامِ يَحْدُثُ فِيهَا ... مَا يُضَاهِي وَقْعَ السُّيُوفِ الصَّقِيلَهْ

وَبِنَارِ الْحُمَّى تُلازِمُ جِسْمِي ... كَلُزُومِ الثَّقِيلِ تَأْبَى قُبُولَهْ

لَمْ أَنَمْ لَيْلَتِي مِنَ الضُّرِّ حَتَّى ... يَبْعَثُ الصُّبْحُ فِي الْفَضَاءِ دَلِيلَهْ

وَهَنَ الْعَظْمُ يَا صَدِيقِي وَأَضْحَتْ ... قُوَّتِي غَيْرَ ذَاتِ جَدْوَى ضَئِيلَهْ

كُـــلُّ هَـــذَا أَصَـــابَنِي فِـــي مَـــشِيبِي إِنَّ عَهَـــدَ الـــشَّبَابُ عَهْـــدَ الْفُحُولَـــهْ
كُنْـــتُ فِـــي صِـــحَةٍ يَغَـــارُونَ مِنْهَـــا يَـــوْمَ مَـــدَّ الـــشَّبَابُ فَـــوْقِي ظَلِيلَـــهْ
فَغَزَانِـــي الْمَـــشِيبُ مِـــنْ كُـــلِّ صَـــوْبٍ فَهِـــيَ الْيَـــومَ فِـــي انْحِـــرَافٍ هَزِيلَـــهْ
وَالَّـــذِي زَادَنِـــي عَلَـــى النَّـــارِ عُـــودًا شَـــيْبُ رَأْسٍ فَـــالنَّفْسُ مِنْـــهُ عَلِيلَـــهْ
وَضَعَ الـــشَّيْبُ فِـــي طَرِيقِـــي صُـــخُورًا لَـــمْ أَعُـــدْ مَطْمَـــحَ الْعُيُـــونِ الْكَحِيلَـــهْ
عَزَفَـــتْ حِينَمَـــا رَأَتْ شَـــيْبَ رَأْسِـــي وَاشْـــمَأَزَتْ كَـــأَنَّ شَـــيْبِي رَذِيلَـــهْ
كَـــمْ بَـــذَلْتُ الْجُهُـــودَ أَدْفَـــعُ عَنِّـــي تُهْمَـــةَ الـــشَّيْبِ أَسْـــتَمِيلُ الْجَمِيلَـــهْ
قُلْتُ مَا الـــشَّيْبُ فِـــي الرِّجَـــالِ بِعَيْـــبٍ إِنَّمَـــا الـــشَّيْبُ فِـــي الرِّجَـــالِ فَـــضِيلَهْ
ثُـــمَّ إِنِّـــي يَـــا رَبَّـــةَ الْحُـــسْنِ أَحْظَـــى بِبَثَـــرَاءٍ وإِنَّ لِلْمَـــالِ صُـــولَهْ[1]

ليثير ذلك الاستفهام (الإدهاشي) علاقة مشابهة عند المتلقي ، وتظل امتداداته عالقة في الذهن مثيرة للانفعال مؤسسة لعلاقة تجاذب بين الكاتب والمتلقي ،" فليست علاقة الجمهور بالكاتب كعلاقة الانفعال بالفعل ، والاستهلاك بالإنتاج والتلقي بالفعالية . إن الجمهور ليس سلباً مطلقاً ، لكنه بالرغم من ذلك ليس إيجاباً وحسب . إنه هذا وذاك"[2]

وهذه البنية اللغوية المفارقة قادرة على التوغل لمناطق نفسية مأهولة بالوجع ، ومن ثم تفرز مستويات دلالية متمايزة ، لها قدرة على تنشيط وعي المتلقي ومخيلته ودفعه مرة أخرى لمعاودة قراءة النص ليحقق إنجاز جديد " والقارئ الخاص : الذي يكر ثانية على النص ليتأكد من غنائمه ويستعيد مملكته "[3]

يعد شاعرنا الشيب نذارة من ربهم ليستعدوا بالعمل قبل حلول الأجل ، فليس بعد هذا المشيب بضعفه ووهنه إلا رذائل الأعمار ، والانتقال من هذه الدار.

وإذا شاب المرء فقد أعذره ربه بتعميره ، وإمداده في فسحة حياته ، وقد اشتدَّ عتاب الله على أقوام عاشوا طويلاً ، وامتدت حياتهم لكنهم لم ينتفعوا بأعمارهم .

([1]) محمد فتوح / تحليل النص الشعري / النادي الأدبي الثقافي / جدة / ١٩٩٩م / ص : ٢٣
([2]) عبد السلام بنعبد العالي // ميثولوجيا الواقع / دار الطليعة / ط ١ / ١٩٩٩م / بيروت / ص ٧٣
([3]) حاتم الصكر / مرجع سابق/ ص :١١

المؤمن في حياته كلها في خير وعلى خير فهذا المشيب وإن جاء بالضعف والعجز والانحدار إلا أنه يحمل أبواباً عظيمة من الأجر ، لمن تحلى بالصبر ، والإيمان بالقدر.
نعم للشباب نشاطه وحيويته ، وزهرته ولذته ، إلا أن لأهل الشيب في الإسلام ما ليس لمن دونهم وثبت لهم من الفضائل ما تهفوا له القلوب ، وتتطلع إليه النفوس.
يعظ الشاعر نفسه موعظة مودع فيرى أنه بآخرة العمر ولا حول ولا قوة له فأي قوة ينتظر من بلغت سنونه الستين

يَا نَفْسُ حَسْبُكِ غَفْلَةً وَتَوَانِي ... عَنْ فِعْلِ مَا فِيهِ رِضَا الرَّحْمَنِ
هَلْ تَحْسَبِينَ الْعُمْرَ عَيْشًا هَانِئًا ... لا يَنْقَضِي وَالْعُمْرُ لَيْسَ بِفَانِ
هَيْهَاتَ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي وَهَلْ ... يُغْنِي السَّرَابُ يَلُوحُ فِي قِيعَانِ
مَا الْعُمْرُ إلا كَاسْتِرَاحَةِ عَابِرٍ ... فِي ظِلِّ دَوْحَةِ* ظَلَّ بَعْضَ ثَوَانِي
وَمَضَى وَخَلَّفَهَا وَرَاهُ وَهَكَذَا ... يَوْمٌ يَمُرُّ، وَحَلَّ يَوْمٌ ثَانِي
سِتُونَ عَامًا مِنْ رَصِيدِي قَدْ مَضَتْ ... وَلَّتْ وَلَمْ أَدْرِ* كَطَيْفِ أَمَانِي
وَحَصِيلَتِي مِنْهَا الذي قَدَّمْتُهُ ... وَاللهُ يَعْلَمُ مَا حَوَى مِيزَانِي
فَإِذَا بَقِيتُ فَجُلُّ يَوْمِي قَدْ مَضَى ... وَغُرُوبُ شَمْسِي لا مَحَالَةَ دَانِي
أَسْتَغْفِرُ اللهَ الْعَظِيمَ وَلَيسَ لِي ... إلا الرَّجَا فِي وَاسِعِ الْغُفْرَانِ
فَاسْتَشْعِرِي يَا نَفْسُ نَفْحَ فَضَائِلٍ ... هَبَّتْ كَرِيحِ الْفُلِّ فِي رَمَضَانِ
وَتَلَمَّسِي طُرُقَ الْهِدَايَةِ وَاسْلُكِي ... سُبُلَ الرَّشَادِ إِلَى عَظِيمِ الشَّانِ
وَذَرِي الْغَوِيَّ نَأَى بِهِ شَيْطَانُهُ ... عَنْ كُلِّ صَالِحَةٍ لِعَيْشِ هَوَانِ
عَمِيَتْ بَصِيرَتُهُ فَمَا يَدْرِي أَفِي ... شَهْرِ الصِّيَامِ يَعِيشُ أَمْ شَعْبَانِ؟
مَنْ صَامَ عَنْ أَكْلِ الطَّعَامِ، وَصَامَ عَنْ ... شُرْبِ النَّمِيرِ، وَلَذَّةِ النُّسْوَانِ
وَأَبَى يَصُومُ عَنِ الْقَبِيحِ لِسَانُهُ ... وَغَدَا يَدُوسُ كَرَامَةَ الإِنْسَانِ
بِالْقَدْحِ فِي أَعْرَاضِهِ مُسْتَهْتِرًا ... بِقَدَاسَةِ الإِسْلامِ وَالإِيمَانِ

وَغَـــدَا يُكَـــدِّرُ بِالنَّمِيمَـــةِ صَـــفْوَ مَـــنْ عَاشُـــوا بِـــصَفْوِ الْـــوُدِّ فِـــي اطْمِئْنَـــانِ
فَـــاللهُ عَنْـــهُ فِـــي غِنًـــى، وَصِـــيَامُهُ إِنْ صَـــامَ أَوْ إِفْطَـــارُهُ سِـــيَّانِ[1]

الزهد:

يدرك الشاعر أثر الذنوب والمعاصي في النفس وأنها مرض عضال لا فكاك من أثره إلا بالتوبة النصوح، فكما أن لمخالفة الإرشادات الصحية آثاراً وعوارض ، فكذلك الركون إلى معاصي اللَّه ــ جل وعلا ــ لها آثارها أيضاً، والآثار السلبية تكون على العقل ،و الإيمان ،والأمور الأخروية، وعلى الأمور الدنيوية وأسوأ ما تكون المعاصي في حين أداء الطاعات والعبادات فهي تسلب بركات اللَّه ورحمته

فلذا ينادي نداء المشفق الرؤوف على نفسه ومن وقع أسير المصية ألا تعصوا لكي لا تسلب نعمة الله منكم، بل لا تعصِ لكي تنزل بركاته عليكم فان الإنسان إذا عصى منع اللَّه عنه ما أراد أن يعطيه من مال أو ولد أو جاه أو صحة أو رزق أو غيرها. للمعصية حلاوة حقيقية سرعان ما تتلاشى ويأتي العقاب، ففي الدنيا ذل من تلذذ بمعاصي اللَّه أورثه اللَّه ذلاً، وفي الآخرة اليم العقاب، وإنَّ حلاوة المعصية يفسدها ألم العقوبة.

ولذا نجد الشاعر بعد عقد من الزمن وقد جاوز السبعين يؤكد على هذه المعاني مخاطبا صحبه وأقرانه ممن غيرتهم الأيام وقلبتهم صروف الليالي .

أَوَّاهُ مِـــنْ حَـــرِّ اللَّهِيـــبِ بِأَضْـــلُعِي وَصُـــعُودِ آَهَـــاتِي وَطُـــولِ تَـــوَجُّعِي
مِمَّـــا أُعَانِيـــهِ وَأَقْلَـــقَ خَـــاطِرِي وَنَفَى الْكَـــرَى عَنِّـــي وَطِيـــبَ الْمَـــضْجَعِ
وَلَقَـــدْ يَظُـــنُّ الْـــبَعْضُ أَنِّـــي عَاشِـــقٌ أَهْـــوَى الْجَمَـــالَ وَإِنْ تَـــوَارَتْ أَدْمُعِـــي
هَيْهَاتَ قَدْ وَلَّـــى الـــشَّبَابُ وَمَـــا مَـــضَى لا لَـــنْ يَعُـــودَ وَمَالَـــهُ مِـــنْ مَرْجَـــعِ
مَنْ جَاوَزَ الـــسَّبْعِينَ هَـــلْ تُرَضِـــى بِـــهِ؟ وَتَـــوَدُّهُ الْحَـــسْنَا لِوَقْـــتٍ مُمْتِـــعِ
عَبَثًـــا يُحَـــاوِلُ مَـــنْ يُحَـــاوِلُ جَاهِـــدًا مَا الْعِشْقُ مِنْ هَمِّي وَلَـــمْ يَبْقَـــى مَعِـــي*
فَعَـــلامَ ذَا التَّغْيِيـــرِ مَـــا لِـــي لا أَرَى إِلا الـــسِّبَاقَ وَرَاءَ نَيْـــلِ الْمَطْمَـــعِ

(1) شعر محمد محسن مشاري / ص : ١١٥ ـــ ١١٦ .

لِلْفَـــوْزِ بِـــالْعَرَضِ الـــسَّرِيعِ زَوَالُـــهُ بِطَرِيـــقِ مَـــشْرُوعٍ وَغَيْـــرِ مُـــشَرَّعِ
كُـــلٌّ يَقُـــولُ بِأَنَّـــهُ فِـــي سَـــعْيِهِ يَبْغَـــي الْحَـــلالَ وَفِـــي طَرَائِقِـــهِ يَعِـــي
فِـــي غَيْـــرِ مَـــا حَـــسَدٍ وَلا دَغَـــلٍّ بِـــهِ وَلَقَـــدْ تَكَـــاثَرَ قَـــوْلُهُمْ فِـــي مَـــسْمَعِي
حَتَـــى غَـــدَوْتُ وَلَـــمْ أَعُـــدْ أَدْرِي بِمَـــنْ هُـــوَ صَـــادِقٌ فِـــي قَوْلِـــهِ أَوْ مُـــدَّعِي
اللهِ مِـــنْ دُنْيَـــا وَمَـــا قَـــدْ أَحْـــدَثَتْ كَـــمْ ضَـــلَّ فِيهَـــا مِـــنْ أَرِيـــبٍ أَرْوَعِ
حَتَـــى غَـــدَا يَجْـــرِي وَرَاءَ سَـــرَابِهَا فِـــي لَهْفَـــةٍ تَنْـــسَي أَلِـــيمَ الْمَـــصْرَعِ
مَهْـــلا أَخِـــي أَرْقِـــقْ بِنَفْـــسِكَ إِنَّمَـــا رِزْقُ الْعِبَـــادِ مِـــنَ الْكَـــرِيمِ الْمُبْـــدِعِ
وَارْبَـــأْ بِنَفْـــسِكَ أَنْ تَكُـــونَ قَـــرِينَ مَـــنْ زَلَّـــتْ بِـــهِ قَـــدَمَاهُ فِـــي مُـــسْتَنْقَعِ
يَـــا إِخْـــوَتِي مَـــا هَـــذِهِ الـــدُّنْيَا لنَـــا إِلا كَظِـــلٍّ زَائِـــلٍ مُتَقَطِّـــعِ
فَتَـــزَوَّدُوا التَّقْـــوَى بِهَـــا كَـــيْ تَنْجَحُـــوا وَحَـــذَارِ مِـــنْ غَـــدْرٍ لَهَـــا مُتَوَقَّـــعِ
لا فَـــوْزَ فِـــي الأُخْـــرَى لِمَـــنْ لا يَتَّقِـــي مَـــا الْفَـــوْزُ إِلا لِلتَّقِـــي الْمُتَـــوَرِّعِ[1]

إنها دعوة صادقة من مجرب عرك الحياة ومازج ناسها إلى محاسبة النفس والتأهب للآخرة، الاستعداد لها هو أعظم عمل مناط بالعبد بعد الإيمان ، فإن حياة الخلود متعلقة بهذه الأعمال التي يعملها العبد. والتأهب للآخرة : هو نقل القلب من وطن الدنيا ، والسفر به إلى وطن الآخرة. إنها نظرة خبير كيف أخذت الدنيا قلوب كثير من الرجال حتى شغلتها عن الاستعداد للآخرة

نـــرقعُ دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا مـــا نرقعُ
فطـوبى لعبدٍ آثر الله وحدَه وجـــاد بدنيـاه لما يتوقعُ

فالرسول صلى الله عليه وسلم حذّرنا في حديثه الشريف: اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، صحتك قبل سقمك، فراغك قبل شغلك، غناك قبل فقرك، حياتك قبل موتك" والفراغ الذي جاء في الحديث هو الليل لأن الليل فيه فراغ والنهار فيه العمل والسعي فالفراغ نعمة إذا استغله المسلم في طاعة الله كأن يصلي ركعتين في جوف

(1) شعر محمد محسن مشاري / ص : ٨٥ ـــ ٨٦ .

الليل خوفاً وطمعا ويكون من عباد الرحمن الذين يبيتون لربهم سجّداً وقياما. فاغتنم الفرصة في كل ما يتاح لك من عمل صالح.

حتى إذا وجدت نفسك منغمساً في المعاصي عليك أن تبادر بالتوبة وعليك بمصاحبة الصالحين لأنها تُخرج من الظلمات إلى النور ولا يعقل أن يدلك الصاحب الصالح على أمر فيه معصية لله

الشيب:

ويبقى الشيب في نظر شاعرنا وإن أنفه الناس عنوان الوقار ، وتاج الهيبة ، ورمز الإجلال والرزانة ، فجدير بمن لبس ثوب الوقار أن يتوقَّر ، وحري بمن أبيض عارضاه أن يبيض صحيفته ، والمصيبة والرزية أن يجمع العبد بين بياض الشعر وسواد الصحيفة .

وإذا كان للشباب ثوب القوة والفتوة ، فإن للشيوخ رداء الرأي والحكمة ، وإذا كان للشباب عزم وإقدام ، فإن للشيوخ تجارب وأحلاماً، ولا يزال الناس بخير ما ارتبط أصاغرهم بأكابرهم ، فاستناروا بآرائهم ، واستضاؤوا بتوجيهاتهم .

فهؤلاء الكبار عرفوا الأيام ، وعاشوا تقلبات الزمان ، وحنكتهم التجارب ، وصقلتهم الحياة فحصلوا من معتركها رصيداً من الحكمة ، وذخراً من الواقعية .

ومن الأهمية في التربية والاستقامة المنهجية ربط شباب الأمة بأكابرهم وشيوخهم من أهل الصلاح والديانة ، فهو صمام أمان لهؤلاء الشباب ــ بعد توفيق الله ــ من الولوغ في شراك الثقافات الوافدة أو الوقوع في التبعية وسفه الرأي، وسوء التصرف:

لِمَ يَا نَفْسُ قَدْ أَضَعْتِ شَبَابِي إِثْرَ دُنْيًا تَلُوحُ مِثْلَ السَّرَابِ؟

لِمَ أَقْضِي سِنِينَ عُمْرِي عَنَاءً أَرْكَبُ الْهَوْلَ أَسْتَطِيبُ عَذَابِي؟

شِبْتُ وَالْحِرصُ لا يَزَالُ شَبَابًا مَا تَوَانَى عَنْ سَيْرِهِ فِي رِكَابِي

عِشْتُ أَسْعَى لِكَسْبِ مَالٍ وَجَاهٍ لا أُبَالِي مِنْ أَيْنَ كَانَ اكْتِسَابي

مِنْ دِمَاءِ الفَقِيرِ خُبْزُ طَعَامِي؟ مِنْ دُمُوعِ الفَقِيرِ كَأْسُ شَرَابِي

كُلُّ هَمِّي بِنَاءُ ثَرْوَتِي لَسْتُ* أَدْرِي رُبْمَا كَانَ فِي بِنَائِي خَرَابِي

أَتَبَاهَى بِمَا كَسَبْتُ وَأَبْنِي صَرْحَ مَجْدِي عَلَى رُفَاتِ صِحَابِي

وكَـــأَنِي مُخَلَّـــدٌ فِـــي أَمَـــانٍ مِـــنْ صُـــرُوفِ الزَّمَـــانِ وَالانْقَـــلابِ
لِمَ يَـا نَفْـسُ؟ أَرْتَـدِي الْكِبْـرَ ثَوْبًـا؟ وَتَنَاسَـــيْتُ فِـــي خِـــضَمِ رِغَـــابِي
أَنَّ بِـــدْئِي بِنُطْفَـــةٍ مِـــنْ مَنِـــيٍّ وَانْتِهَـــائِي بِجِيفَـــةٍ فِـــي التُّـــرَابِ
إِيـــهِ يَـــا نَفْـــسُ إِنَّمَـــا الْخَيْـــرُ أَبْقَـــى وَهُـــوَ يَهْـــدِي إِلَـــى كَـــرِيمِ المَـــآبِ
لا تَخَـــالِي أَنَّ الْحَيَـــاةَ ثَـــرَاءٌ واعتِـــزازٌ بمنـــصبٍ جـــذَّابِ
وامـــتلاكُ الجنـــانِ والمركـــب الفخـــمِ وفخـــرٌ بناطحـــاتِ الـــسحابِ
وَسِـــبَاقٌ إِلَـــى المَلَـــذَاتِ فِيـــهِ يَغْلِـــبُ الـــشَّيْخَ عُنْفُـــوانُ الـــشَّبَابِ
وامْـــتِلاءُ البُطُـــونِ مِـــنْ كُـــلِّ لَـــوْنٍ تَـــشْتَهِيهِ، وَلِـــبْسُ غَـــالِي الثِّيَـــابِ
وَاغْتِـــصَابُ القَـــوِيِّ حَـــقَّ ضَـــعِيفٍ دُونَ وَجْـــهٍ وَتِلْـــكَ شِـــرْعَةُ غَـــابِ
وَمُحَابَـــاةُ صَـــاحِبِ الْجَـــاهِ فِينَـــا واحْتِـــرَامٌ لِـــذَاكَ عَـــالِي الْجَنَـــابِ
وَنِفَـــاقٌ تَكَـــوَّنَ الْمَكْـــرُ فِيـــهِ فِـــي خِـــدَاعٍ يَفُـــوقُ لَـــوْنَ الحَرَابِـــي
وَمَـــدِيحٌ فِـــي الْوَجْـــهِ يَخْجَـــلُ مِنْـــهُ كُـــلُّ حُـــرٍّ، وَعَقْـــرَبٌ فِـــي الغِيَـــابِ
وَجَفَـــاءٌ لِمُعْـــدَمٍ وضَـــعِيفٍ واحْتِقَـــارٌ وَغِلْظَـــةٌ فِـــي الْخِطَـــابِ
إِنِّ تَكِـــنْ هَكَـــذَا الْحَيَـــاةُ فَإِنَّـــا قَـــدْ غَلَطْنَـــا مُقَـــدَّمًا فِـــي الحِـــسابِ
إِنَّ مَعْنَـــى الْحَيَـــاةِ أَغْلَـــى وَأَسْـــمَا مِـــنْ عُـــرُوضٍ وبَـــسْمَةٍ مِـــنْ كِعَـــابِ
إِنَّ مِعْنَـــى الْحَيَـــاةِ حُـــبٌّ وَعَـــدْلٌ وَالْتِـــزَامٌ بِـــأَمْتَنِ الأَسْـــبَابِ
بِالْكِتَـــابِ الْمُبِـــينِ بِالْمُثُـــلِ الْعُلْيَـــا وبِالـــصَّدْقِ وَالْتِـــزَامِ الـــصَّوَابِ
بِالْمُـــسَاوَاةِ فِـــي الْحُقُـــوقِ فَـــلا ذَا مُـــسْتَجَابٌ وذَاكَ مِـــنْ خَلْـــفِ بَـــابِ
بِالتَّـــآخِي وَبِالتَّعَـــاونِ فِيمَـــا يَجْلِـــبُ الْخَيْـــرَ لا لِـــشَرِ نُحَـــابِي
بِالـــشُّعُورِ النَّبِيـــلِ مِـــنْ كُـــلِّ فَـــرْدٍ سَـــوْفَ نَبْقَـــى بِأُلْفَـــةٍ واقْتِـــرَابِ
بِـــصَفَاءِ النُّفُـــوسِ بِـــالطُّهْرِ فِينَـــا لا بِحِقْـــدٍ نِيَـــارُهُ فِـــي الْتِهَـــابِ

بِارْتِفَـــاعٍ عَمَّـــا يُـــدَنِّسُ عِرْضِـــي إِنَّ صَـــوْنَ الْوُجُـــوهِ بِالأَحْـــسَابِ
بِعَطَـــاءِ الفَقِيـــرِ فـــي غَيْـــرِ مَـــنٍّ وازْدِرَاءٍ وَعَـــوْنِ كُـــلِّ مُـــصَابِ
بِكَـــرِيمِ الأَخْـــلاقِ نَحْيَـــا كِرَامًـــا فِـــي سُـــمُوٍّ يُـــذِلُّ كُـــلَّ صِـــعَابِ
ذَاكَ مَعْنَـــى الحَيَـــاةِ أَمَّـــا سِـــوَاه سَـــوْفَ يَنْهَـــارُ كالْجَلِيـــدِ الْمُـــذَابِ[1]

المتلقي لهذه الأبيات يحس بأن مفرداتها وتعبيراتها التي استعان بها شاعرنا تجسد ما يمور في وجدانه ووجدان كل إنسان مجرب من آلام وهموم ثقال وانظر إلى تلك النداءات والأسئلة المتتابعة المنطلقة كالحمم البركانية من نفس تعاني وتصطلي بحر معاناتها بما؛ يوحي **باتساع الدلالة وتعدد** منافذها ويكون لعاطفة الحزن دور في إحداث التوازن والتماسك بين أجزاء القصيدة ،" إذن فالعاطفة هي التي تهب القصيدة وحدتها وتماسكاً وهى التي تحقق الانصهار بين أجزاء العمل الواحد فلا يبقى أي عنصر محتفظاً بالطبيعة التي كانت له " [2]

غلاء المعيشة :

وَرُسُـــومُ التَّيَّـــارِ عِـــبءٌ ثَقِيـــلٌ قَـــضَمَ الظَّهْـــرَ بَـــلْ وَأَفْقَـــرَ كَفِّـــي
لَـــمْ يَعُـــدْ رَاتِـــبُ الْمُوَظَّـــفِ يَكْفِـــي مَطْلَـــبَ البَيْـــتِ فِـــي شِـــتَاءٍ وَصَـــيْفِ
وَمَـــصَارِيفُ كُـــلُّ يَـــوْمٍ يَلِيهَـــا هَـــاتِفُ الْبَيْـــتِ يَـــا لِجَيْبِـــي وَلَهْفَـــي!
ذَاكَ صِـــنْوُ التَّيَّـــارِ خَـــصْمَانِ حَقًّـــا ذَا أَمَـــامِي، وَذَاكَ يَـــرْكُضُ خَلْفِـــي
وَمِيَـــاهُ الأَوْسَـــاخِ نَاهِيـــكَ عَمَّـــا يَطْلُبُـــونَ* الْعِيَـــالُ فِـــي غَيْـــرِ عَطْـــفِ
طَلَبَـــاتٍ يُقَـــصِّرُ الْجَيْـــبُ عَنْهَـــا مَـــا انْتَهَتْيَـــا إلا دُعِيـــتُ لِـــصَرْفِ[3]

أصبحت الشكوى من ارتفاع أسعار السلع الاستهلاكية حديث المنازل والمجالس، فرواتب الموظفين لم يطرأ عليها زيادة ، ما يعني عدم وجود تغيير على رواتب

---

(1) شعر محمد محسن مشاري / ص : ٤٣ ، ٤٤ .

(2) محمد زكى العشماوي / دراسات في النقد الأدبي المعاصر / دار الشروق / القاهرة / ١٩٩٤ م / ص : ١٥٣

(3) شعر محمد محسن مشاري / ص : ٢٩ ــ ٩٣ .

الموظفين ومصادر الدخل،وفي أحوال كهذه، تصبح زيادات الأسعار غير المبررة أمراً مرهقاً اقتصادياً وإنسانياً واجتماعياً للأفراد، ويحملهم فوق طاقتهم، فالأسر وإن فضلت بقاء الرواتب على ما هي عليه دون زيادة، فذلك أفضل لها بكثير من أي زيادة تطرأ على الرواتب وتقابلها في الوقت نفسه زيادة طردية في أسعار السلع تتسبب في غلاء المعيشة بشكل عام.

وينادي الشاعر المشاري بضبط الأسعار والحفاظ على استقرارها وهو أمر لا يقل في أهميته عن ضبط أسعار الإيجارات والعقارات، لأن في ذلك تحقيق المزيد من الاستقرار النفسي والإنساني والاقتصادي للأفراد والأسر، وفيه تعزيز للبيئة التي تتطلع الدولة لأن تكون جاذبة للجميع أكثر من غيرها، سواء للإقامة أو العمل. لذا فإن المرجو الجهات الرقابية الأخرى أن تبذل جهوداً أكبر لضبط السلع وأسعارها في الأسواق..

ـــ مداعبات :

تمثل المداعبات جانباً من جوانب التجربة الشعرية عند المشاري، وتكشف عن خفة ظله، وعن روحه المرحة، يقول في واحدة من تلك المداعبات:

يَـــا رَئِيـــسِي لَقَـــدَ بَعَثْـــتُ إِلَـــيْكُمْ بِـــسُؤَالٍ، وَمِنْـــكَ أَرْجُـــو الإِجَابَـــهْ

فَلَقَـــدْ ضِـــقْتُ بِالْخَرَابَـــةِ ذَرْعًـــا كَـــمْ سَـــأَبْقَى سَـــجِينَ تِلْـــكَ الْخَرَابَـــهْ

كُـــلُّ يَـــوْمٍ يُـــشَنِّفُ الـــسَّمْعَ فِيهَـــا نَـــاعِقُ الْبُـــومِ أَوْ طَنِـــينُ الذُّبَابَـــهْ

وَالْخَفَـــافِيشُ طَلْعَـــةٌ تِلْـــوَ أُخْـــرَى فِـــي سَـــمَاهَا كَأَنَّهَـــا فِـــي حِرَابَـــهْ

أَزْعَجَتْنِـــي وَكُـــلُّ عَقْـــرَبَ فِيهَـــا سُـــلْحَفَاةٌ وَلِلثَّعَـــابِينِ غَابَـــهْ

يَا رَئِيسِي وَلَـوْ تَـرَى الْفَـأْرَ فِيهَـا يُـشْبِهُ الـدُّبَّ حَجْمُـهُ وَالـصَّلابَهْ

يَـــا رَئِيـــسِي وَيَعْلَـــمُ اللهُ أَنِّـــي فِـــي عَنَـــاءٍ، وَتَعْتَرِينِـــي كَآبَـــهْ

فِـــي دَوَامِـــي وَالْخَـــوْفُ يَمْـــلأُ قَلْبِـــي يَـــا لِهَـــوْلِي إِذَا أَطَلَّـــتْ سَـــحَابَهْ

خَشْيَةً مِنْ هُطُولِ وَابِـلٍ يَـا رَئِيـسِي* فَيُـــصَفِّي لِمَـــا تَبَقَّـــى حِـــسَابَهْ

حَيْـثُ تَنْهَـارُ فَـوْقَ رَأْسِـي فَتَغْـدُو هَـذِهِ الـرُّوحُ فِـي الْحُطَـامِ مُذَابَـهْ

بَعْـــدَ هَـــذَا لا قَـــدَّرَ اللهُ قُـــلْ لِـــي أَيُّ جَـــدْوَى فِـــي دَفْتَـــرِي وَالْكِتَابَـــهْ
لَـــسْتُ أَدْرِي وَقَـــدْ أَقَـــامَ سِـــوَانَا فِـــي مَبَـــانٍ وَقَـــدْ كَـــسَتْهَا الْمَهَابَـــهْ
وَأَقَمْنَـــا بِخَرَابَـــةٍ قَـــدْ تَعَـــاطَى فَوْقَهَـــا الـــدَّهْرُ أَكْلَـــهُ وَشَـــرَابَهْ
مَـــنْ يَرَاهَـــا يَخَالُهَـــا دَارَ قَـــوْمٍ قَـــدْ عَـــصَوا اللهَ فَاسْـــتَحَقُوا عِقَابَـــهْ[1]

فالشاعر يدرك أن التعاملات فى العمل بين الزملاء بعضهم البعض أو حتى بين الموظف ومديره أو رئيسه، لا تخرج بينهم عن حدود اللياقة والآداب العامة. لابد لها من قواعد يجب اتباعها لتحسين العلاقة بين أفراد العمل خاصة العلاقة بين الرئيس والمرؤوس، فلابد أن يعرف كل منهما حقوقه وواجباته، ولا يتعداها حتى يتجنب أى مشاكل يمكن حدوثها، ودائماً يستخدم الشاعر اللغة الرقيقة والكلمات المناسبة فى أماكنها الصحيحة، فإذا كان الموقف لا يستدعى المداعبة والملاطفة، فلا بد من الالتزام بلغة حوار جدية، والعكس صحيح. كما يجب أن يكون هناك احترام متبادل بين الطرفين فإن كانت هناك مشكلة ما يعانى منها المرؤوس فمن الأفضل أن يعرضها على رئيسه بكل لياقة وأدب، ويتقبل كل ردود الأفعال، والفكرة نفسها بالنسبة للرئيس يجب أن يستوعبها موظفوه وعليه أن يكون أكثر ودًا معهم طالما هناك حدود لم يتخطوها . والنص بعاليه خير مؤيد وهو دليل وعي ونتاج خبرة عاشها شاعرنا المشاري طيلة مسيرته في الوظيفة.

(1) شعر محمد محسن مشاري / ص : ٥٣ ــ ٥٤ .

خاتمة

وجد الشاعر المشاري أن من الواجب عليه طرح جملة القضايا التي تشكل أساس العلل التي يعاني منها مجتمعه؛ فانتشار موجات الفساد آفة تضرب في أعماق المجتمع وتفتك بمقومات الوطن وتنشر عدوى أمراض واشتراكات أخرى وتداعيات وانعكاسات تخلق البيئة المثالية للعلل الأخرى التي تشكو من تضخم مخاطرها ومصائبها.ومهما حاولنا تقديم المبررات والأعذار فإن الصراحة تستدعي وضع اليد على مواطن العلل والدعوة للإسراع بالبدء بأنفسنا أولاً، مع الاعتراف بوجودها أصلاً، لأن الاعتراف هو سيد الأدلة، وهو البداية لأي حل ولكل علاج ومن بعده تبدأ مسيرة إصلاح الأحوال بتأمين عوامل النجاح وهي كثيرة أولها توفر النيات والعزيمة والإرادة ونبذ الخلافات وأسباب الفرقة، والإقدام والاستعداد للتضحية في سبيل هذه الأهداف السامية.

وهذا يتطلب إعادة النظر في كل القضايا والأمور من دون استثناء ولا خضوع لرغبات ونزعات أو تجنباً لحساسيات وعصبيات ومساومات.

عرض المشاري قضايا مجتمعه على نحو جميل مؤثر، وبلغة شعرية رقيقة، أبانت عن رؤاه ونقلتها إلى المتلقي في حمولات متنوعة " فالشعر تبرز معانيه في حله من الصور والمجازات والرموز ، وهو في ذلك يوحي ولا يقرر ، يثير ولا يجزم والفرق بينه وبين النثر كالفرق بين الرقص والسير "[1]

([1]) بكرى شيخ / مرجع سابق / ص٣٧٣ .

مصادر البحث :

- أحمد كمال زكي/ الأساطير/ دار العودة بيروت/ ١٩٧٩م.
- أسماء أبو بكر / آليات التناص النوعي في شعر الحداثة .
- أسماء أبو بكر/ سيميائية النص الشعري / دار الأمانة للنشر والتوزيع/ ٢٠٠٣ م.
- بكري شيخ/ الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية/ دار صادر، بيروت، لبنان ١٩٧٣م.
- خالد ربيع الشافعي / شعر محمد محسن المشاري/ جمع وتحقيق / ط١/ ٢٠٠٩م/ نادي جازان الأدبي.
- شاكر عبد الحميد/ الأسس النفسية للإبداع الأدبي في القصة القصيرة / الهيئة المصرية العامة للكتاب/ ١٩٩٢م.
- عز الدين إسماعيل / الأدب وفنونه / دار الفكر العربي ، ط ٧ ، ١٩٧٨م.
- محمد زكي العشماوي/ دراسات في النقد الأدبي المعاصر/ دار الشروق /القاهرة/ ١٩٩٤م .
- مصطفي ناصف مصطفى ناصف نظرية التأويل النادي الثقافي جدة ١٤٢٠هـ.
- مصطفي ناصف/ نظرية التأويل / النادي الأدبي الثقافي في جد ١٤٢٠هـ.
- مفرح إدريس السيد / الشعر الاجتماعي في المملكة العربية السعودية منذ نشأتها حتى ١٣٩٥هـ / ط ١ ،٢٠٠٢م / من مطبوعات نادي المدينة المنورة الأدبي .